إبراهيم الكوني



البلبال

الجزء الثاني

دار النهار

إبراهيم الكوني

سَأُسِرُّ بأمْري لخِلّاني الفُصُول

ملحمة روائية

الجزء الثاني

البلبال

دار النهار

سَأسِرُ بأمري لِخِلاّنِي الفُصُول
مَلحَمة روائيَة

الجزء الثاني

البِلْبَال

الطبعة الأولى، حزيران ١٩٩٩

ص ب ٢٢٦-١١، بيروت، لبنان
فاكس ٩٦١-١-٧٣٨١٥٩

ISBN 2-84289-126-0

المحتويات

«كنت شقيّاً، وشقيّة هي كلّ نفس مغلولة بحبّ شيء زائل: تتمزّق هي إذْ تفقد، ولا تعي سرّ شقائها إلاّ في فَقْد كانت به شقيّة حتى قبيل الفَقْد. هكذا كان حالي يومها؛ أبكي بمرارة، فلا أجد لي عزاء إلاّ في هذه المرارة. هذا هو شقائي الذي غدا صديقاً أحبّ من صديقي الذي كان لي علّة شقاء. قطعاً جاهدت لتغيير هذا الحال، ولكني عجزت عن احتمال فقدانها، كما عجزت عن فقدان الصديق. ولا أدري يقيناً عما إذا كنت قادراً على التضحية بحياتي في سبيله (كما يحكى عن «اورست» و«بيلاد» اللذين أرادا أن يميتا نفسيهما معاً، لأنهما لن يطيقا أن يحيا أحدهما بعد الآخر). في نفسي تولّد إحساس مضاد تماماً. كنت أغالب نحو الحياة أعنف اشمئزاز، وأعاني في الآن نفسه خوفاً من الموت. خيّل لي أني كلما أحببته أكثر، كلما كرهت الموت أكثر، كما يكره العدوّ ألدّ الأعداء، لمجرّد أن الموت سيأخذه منّي. فكرت بأن الموت الذي يبتلع الكلّ،

يستطيع أن يبتلعه أيضاً (...). وأدهشني أن يظلّ أغيار الناس على قيد الحياة، لأنّ مَنْ ظننت أنه لا يموت، كان قد مات. أدهشني أكثر أن أبقى أنا، «أناه» الثانية، بعده على قيد الحياة، في حين يموت هو؛ لأنّ أنبل ما قيل عن الصديق هو «شقّ الروح الثاني». أحسست دائماً أن روحه وروحي روحاً واحدة في جسدين. والحياة بدونه أفزعتني لأني لم أشأ أن أحيا نصف حياة. ربما لهذا السبب لم أطلب الموت خوفاً من أن يموت، بموتي، ذلك الإنسان الذي أحببت».

القديس أوغسطين، «الاعتراف» (٤، ٦)

«أنظر إلى الأشقّاء كيف يتنازعون. أنا أريد أن أتحدّث عن البِلْبال».

سُوتّا نيباتا

غـيثُ الخـَريفُ

(هـَـرُو)

١

- أفانمان! أفانمان! أفانمان!

رددت الإسم. لم أتوقّف عن ترديد الإسم. ردّدته طوال توجّعي تحت وزر الكابوس الذي كتم أنفاسي عقب النجاة.

اخترت الإسم بديلاً عن أنين المحمومين، فصار لي الإسم، في الفم، تميمةً لطرد الحمّى. الأَمَة أخبرتني، فيما بعد، أنّي كنت أردد التميمة حتى عندما عثر عليّ رب القافلة العابرة مطروحاً على لوح الصلصال. لا أدري، يا مولاي، كم استغرقت هجعتي في الخباء المضحك الذي أقامته الأَمَة لنفسها بعد أن انسلّت من فسطاط الأب فراراً من الحيّة التي اقتحمت علينا البيت فأفزعتنا، وشتّتنا، ورمتنا إلى بلقع التّيه ليصير لنا الشتات قَدَراً. آوتني الأَمَة في خبائها يوم وضعوني في يدها راجفاً، شاحباً، دامياً، يتلبّس طين القيعان بدني، مُوسَّم المعصمين والرسغين بأساور الدّم، ينزّ من فمي الزَّبَد واللعاب والماء المخلوط بالتّربان ووقش الجُفاء،

فكانت تمتمتي بالإسم رسالتي الوحيدة التي قرأ فيها الأغيار نبأ بقائي على قيد الحياة. لا أدري كم استغرقت الهجعة، ولكن الأمَة أنبأتني، فيما بعد، أن الهجعة استغرقت أسابيع كثيرة، لم تسمع من فمي خلالها كلمة غير الإسم، ولم أكفّ عن الترنّم بكلمة السرّ إلاّ في اليوم الذي دَخَلَتْ فيه الخباء، ووجدتني أفترس ضياء الضُّحَى بعين امتزج فيها الفرح، بالشّكّ، بالدهشة، بالوجع: فهل كان الميلاد علّة الدهشة؟ هل كان الفرح فرحاً بالنجاة؟ وهل علّة الوجع هي العلّة؟ وهل كان الشكّ من سلالة تلك الشكوك التي يعرفها كل من عارك البلاء طويلاً حتّى صار له اليأس يقيناً؟ اليقين أنّي لم أتعرّف إلى الأمَة. ما أذكره يقيناً أنّي لم أتعرّف إلى الأمَة لأني لم أتعرّف إلى نفسي. لم أعرف مَنْ أنا، ولا أين أنا، ولا ماذا أصنع هنا، برغم أن لساني مضى يتلجلج بالإسم رغماً عنّي. لم أعرف شيئاً، لأن نسياناً غسل قلبي من كل شيء رغم أنه لم يستطع أن يغسل من لساني الإسم. وبرغم الدهشة، وبرغم الشّكّ، وبرغم الوجع، إلاّ أني لا أستطيع أن أنكر إحساسي بتلك البهجة الغامضة التي يسمّيها عقلاء القبيلة سعادة. بهجة إنسان لم يرَ الأب يجثم على صدر الأمّ ليدسّ النصل في نحرها. بهجة إنسان لم يسرح لبّه في الخلاء ليخطفه التيه إلى بلاد الجنّ، ولا يعود من هناك إلاّ مستبدلاً. بهجة إنسان لم تتسلّل الحيّة إلى بيته متنكّرة في جلد حسناء، لتحتلّ موقع الأم في مخدع الأب، وتستميل شقّه المسكين بأجناس الاحتيال، وتوشوش في أذن الأب بالدسيسة. بهجة إنسان لم ينكره الأب، ولم يرم به، مقيّداً بحبال المسد، في بطن الوادي ليكون قربَاناً للسيل. بهجة إنسان لم يعرف الخطر، ولم يجرّب مرارة النجاة من الخطر. بهجة إنسان لم يعرف، لأنّه لم يولد. بهجة إنسان ابتلي فَوُلد، ولكنّه نسى أنّه وُلد يوماً، فصار له النسيان فردوساً. بلى، بلىَ، يا مولاي. كان النسيان لي نعيماً لأمد لم يستمرّ طويلاً، لأن الإنسان لا يستطيع أن يطمع في الفوز

بالفردوس طويلاً، إذا حدّق في الكائنات طويلاً. الإنسان يعرّض نفسه لخطر الميلاد، ما أن يتبادل، مع الكائنات، النظرات. الإنسان يطرد من الفردوس إذا استنجد بالكائنات، طمعاً في أن تصير له الكائنات فردوساً. الإنسان يستعير قدر الكائنات ما أن يتماهى مع الكائنات، طلباً للنجاة من المصير الذي ينتظر كل كائن استوى في كيان الكائنات. ولكن الحلم انقشع، والفردوس تبدّد، والسكينة زالت، والبال تبلبل، لأن الكائنات اقتحمت على الإنسان البال. نظرت، فرأيت؛ رأيت ففكّرت؛ فكّرت فأيقظت، من السبات، الذاكرة. استيقظت الذاكرة، فأيقظت الذكرى. والذكرى انقلبت نصالاً مميتة تطعن طعناً وحشياً، فأطلقت أنيناً فاجعاً رغماً عنّي. أنين إنسان سكن الفردوس طويلاً، ثم استيقظ يوماً ليجد نفسه خارج الفردوس. تعرّفت إلى نفسي، وتعرّفت إلى الأَمَة، وتعرّفت إلى الصحراء التي تترامى في مدخل الخباء، فتزحزحت. تزحزحت فغزتني أوجاع لا تطاق. تحاملت، وتحايلت، حتى استطعت أن أسند بدني بعمود الركيزة. اختطفت أنفاساً جشعة، وهممت بالوقوف بمساعدة الركيزة. تضعضع البدن بالدوار، وترنّحت يمنةً ويسرةً قبل أن أهوى أرضاً. هرعت إليّ الأَمَة وأعادتني إلى مرقد كان لي أرجوحةً في وطن النسيان. عجزتُ عن الوقوف، ولكنّي لم أستسلم، ولم أحاول استجداء الخفاء ليعيدني إلى الفردوس المفقود. انتظرت حتى خرجت الأَمَة، فانطلقت خارج الخباء زحفاً على اليدين والركبتين. يدان مطوّقان، عند المعصمين، بسوارين من دم؛ ورجلان موسّمان، عند الرسغين، بخلخالين من دم. دم تيبّس واكتأب واسودّ فتشبّه بلون المغر الذي استخدمه الأوّلون في أحافيرهم على جدران الكهوف وحيطان الصلد. ولكنّي لم أبال بالأساور، ولا بالخلاخيل، المحبوكة من الدّم. كنت أغالب جرَحاً أسوأ من جرح حبل المسد. كنت أقاوم وجعاً أعظم سلطاناً من وجع البدن. وجع

الإنسان الذي وُلد للتوّ، فجرحه الميلاد، جرحه الخروج، جرحه الانبثاق، جرحه فقدان الأمان، فصار كفرخ الطير الذي سقط من العشّ المعلّق في الأعالي قبل الأوان، فعجز عن النجاة، عجز عن الطيران، لأنّه فرّ من العشّ قبل أن يقوى فيه الجناح، وقبل أن يمتلك القدرة على الطيران. لا يعجز الشقيّ عن الطيران وحسب، ولكنه لا يستطيع أن يعود إلى الوراء أيضاً. لا يستطيع أن يعود إلى العشّ أيضاً معتمداً على نفسه، كما لا يستطيع أن يعود إلى العشّ معتمداً على أغيار الطير، أو حتّى على الوالدين. سيصير الشقيّ وحيداً، مهجوراً، عاجزاً في وطن تسكنه الأهوال. في وطن تسكنه الحيّات. في وطن لم ينجُ فيه كائن من شرّ الحيّات. فأيّ طمع لمخلوق كهذا من كيد الحيّات؟ كيف أطمع، بعد انبثاقي، بعد خروجي، بعد ولادتي، في النجاة من بطش الحيّات؟

أستطيع أن أجزم أن علّة الوجع لم تكمن في الجراح التي استبدّت ببدني، ولكن العلّة في إحساسي بالوقوع في المتاهة المعادية، في الفراغ الأبدي القاسي، في الصحراء التي تحوّلت غولاً يتوثّب ليبتلعني، في الهاوية القائمة بين السماء والخلاء. الهاوية التي وجدت نفسي في فمها. الهاوية المجهولة التي أوقعني المجهول في فمها. الهاوية التي تستدرجني، وتغريني، وتتبسّم في وجهي بإغواء الحسناء. الهاوية اللئيمة التي تلوّح في وجهي بالمغريات، ولكني أعلم، علماً خفيّاً، أن في وعدها الوعيد، والإغواء في مسلكها شرك، ونعيمها تيه وفجيعة وبئس مصير. فياليتني لم أقف في وجهها! ليتني لم أشرب السمّ من نبعها! ليتني لم آكل من سُحْتها! ليتني لم أدركها! ليتني لم أعرفها! ليتني لم أفقد العشّ! ليتنيَ لم أخرج! ليتني لم أولد! ليتني لم أولد! ليتني لم أولد!

٢

في ذلك اليوم اعترضت الأمَة سبيلي. في ذلك اليوم أعادتني الأمَة من منتصف الطريق. في ذلك اليوم قطعت عليّ الأمَة سفري في طلب الشقيق، في طلب المعشوق، في طلب التميمة، في طلب الترياق، في طلب الترياق الوحيد لداء الهاوية، في طلب نصفي المفقود، في طلب نفسي المفقودة. لم أقاوم الأمَة، لأنّي لم أستعد حتى ذلك الوقت القدرة على المقاومة. أطلقت في وجهها كلمة السرّ، نطقت في وجهها بالكلمة الوحيدة التي لم يأخذها منّي النسيان. كلّمتها باللفظ الوحيد الذي لم يلقّنه لي الميلاد، ولكنّي جئت به محمولاً على طرف اللسان وصيّة من وطن النسيان: أفاغمان! كلمتها بالإسم، فأجابتني بالوجوم. توسّلت إليها بالإسم، فسافرت بعينيها بعيداً. لم أتوقّع أن أسمع منها جواباً، لأني تذكرت أنها لا تتكلّم إلاّ إيماء. حاولت أن أقرأ في عينيها الطلسم، ولكنّها أخفت الطلسم وهاجرت به، في الخلاء،

بعيداً. توجّست شرّاً وحاولت أن أستجوب. حاولت أن أسائل، ولكنّي عجزت. عجزت لأنّي فقدت مرونة اللسان. عجزت لأن اللسان عضلة لا تنطلق بسهولة في أفواه الذين وُلدوا حديثاً. اللسان عضلة لا تطيع الإنسان ما ظلّ في المهد صبيّاً. رأت العجز في العينين، قرأت الشقاء في الحدقتين، فأشاحتْ بوجهها جانباً لتخفي دموع شفقَة فاضت في العينين. أعادتني إلى الفراش بجوار الركيزة. سحبت الأغطية فوق بدني. ثمّ حذّرتني باسمة. حذّرتني بسبّابتها باسمة، قبل أن تخرج لقضاء الحوائج. خَرَجَتْ. خرجتْ، فتذكّرْتُ. تذكّرْتُ المدية. تذكرتُ أنّي نسيت المدية. تذكرت أن الوادي كان آخر عهد تذكرت فيه المدية. تذكرت أني لم أفقد إحساسي بوجودها تحت الإبط إلاّ في الوقت الذي سبق هجوم السيل بقليل. لم أتذكّرها بعدها، لأن القيد أيْأسني من نفعها، فنسيتها. نسيت الجرم المميت الذي دفع عنّي كيد الحيّة، وكان لي مع الأب سرّ خصام، سرّ عراك، سرّ عداء. لا. لا. لم تكن المدية سرّ العداء، ولكنّها لم تكن للعداء سوى حجّة. لعداء الأب سرّ آخر، سرّ أبعد، سرّ لم تكن له حتى الحسناء سبباً. سرّ لم يكن له حتى نحر الأمّ سبباً. سرّ لم يكن له حتّى الاستئثار بالقرين سبباً. سرّ كان له الأب سبباً، يوم صار الأب، لميلاد الإبن، سبباً. بلى. بلى. أصول العداء في السلالة، في رباط الدّم، في رجفة الاشتهاء المحموم الذي رمي بالنطفة المشئومة في الرحم المشئوم، ليصير للأبناء الميلاد من صلب الآباء قَدَراً؛ فلا يجد الأشقياء أنفسهم في هاوية لم يختاروها وحسب، ولكنهم يجدون على رؤوسهم طغاة يذكّرونهم، في كل غمضة، بإحسانهم، ويرون في سعي الأبناء للإفلات عصياناً وجُرْماً وإنكاراً للإحسان، ولا يدري هؤلاء البلهاء أن الأبناء لن يعبّروا لهم عن الامتنان، مقابل الأبوّة، مقابل الميلاد، ولكنهم لن يغفروا لهم الجرم الذي أوجدهم رغم أنوفهم. الجرم الذي طوّح بهم في

هاوية قصاص. قصاص عن جرمٍ لم يرتكبوه. قصاص عن جرم ارتكبه الآباء، وصار عليهم أن يدفعوا الثمن، أن ينالوا القصاص عن الجرم الذي كان له الآباء سبباً. هذا هو العدوان الذي اقترفه الآباء، فوجد الأبناء أنفسهم مجبورين على ردّه. هذا هو الخطأ الذي ارتكبه الآباء، ووجد الأبناء أنفسهم مضطرين لاصلاحه إذا أرادوا أن يردّوا العدوان، إذا أرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم، إذا أرادوا أن يصلحوا الخطأ؛ فلا يجد الأشقياء سبيلاً ينجيهم من طغيان الآباء غير نصل المدية. يحتكم الأبناء إلى المدية ليدفعوا ظلم الآباء. يحتكم الأبناء إلى نصل المدية لينحروا الآباء، ليتحرّروا من إحسان الآباء.

عثرت على المدية. لم يدهشني عثوري على المدية، بقدر ما أدهشني أن أعثر على المدية في عين المكان الذي تركت فيه المدية. عثرت عليها تحت الإبط. مشدودة بسيور تطوّق العظمة التي تخفي الإبط. سيور جلد نقّعته مياه السيول، فتندّى واسترخى ولان. ثمّ اختلست الأهوية فيه النداوة، وبدّدت البلل، فتقسّى الجلد، وتيبّس السير وانكمش حول عظم اليد حتّى غار وحفر في اللّحم أخدوداً عميقاً. حول الأخدود تيبّس الطين. بالطّين علقت ذرات رمل وعيدان الهشيم. فكيف لم يهتد الخلق إلى المدية؟ أم أنّهم اهتدوا إلى المدية، ولكنهم فشلوا في نزَع المدية؟ أم أنّهم لم يفشلوا في نزع المدية، ولكن غيبوبة صاحب المدية ألهتهم عن المدية؟ أم أن الغيبوبة لم تلههم عن المدية، ولكنّهم تعمّدوا أن يتركوا المدية تميمة في كاحل صاحب المدية ارهاباً للجنّ، وافزاعاً لمردة الخفاء الذين استمرأوا الإغارة على كل من لم يملك للدفاع عن نفسه سبيلاً فمسّوه، وأصابوه، واستبدلوه؟ أجل. أجل. لا شكّ أن الحيلة من تدبير الأمَة. الأمَة لن تعدم الحيلة أبداً. الأمَة لن يستغفلها الجنّ أبداً. الأمَة قد تُستغفل بالأنس، ولكنها لن تُستغفل بالجنّ أبداً. الأمَة تلقّتني من يد العابر لقيةً هشّة، وحيدة،

مفقودة. الأَمَة تلقّتني من يد المجهول وليداً لا حول له ولا قوّة. الأمَة استعادتني من بطن المجهول كوماً ضائعاً لا يملك من أمره شيئاً. الأمَة استرجعتني من أوطان النسيان، فصارت لي الأمَة أُمّاً. صارت لي الأمَة أمّاً فتولّت الأمَة أمري كما تتولّى كلّ أمّ أمر الوليد. أغرقتني في أبخرة الشيح، وهبّت لتدبّر لي تمائم كانت في الصحراء قدراً في رقبة كل مخلوق وليد. أعدّت لي التمائم قبل أن تكتشف أن الأقدار سبقتها إلى الوليد بالتمائم. اكتشفت التميمة المخفيّة تحت رُدني، في حفرة الإبط، فأيقنتْ، كما أيقنتُ الآن، أن التميمة كنز لم ينجني من عدوان الجنّ وحسب، ولكن الكنز المدسوس في حفرة الإبط عصمني من كيد عدوّ أفظع من الجنّ، وأشدّ هولاً من أشدّ المردة، وأشرّ من كلّ الأعداء، إسمه السيل! بلى. بلى. الأمَة أدركت أن النصل الشره، المدسوس في غمد السّحر، الملوّث بالطين والغبار، هو السرّ الذي أنقذني من السيل، فتركَت التميمة لصيقةً بجسدي، اعترافاً منها بعجزي في الدفاع عن نفسيَ، ويقينها بحداثة ميلادي، ليقينها بأن كلّ مَنْ فَقَدَ الحَوْل والقوّة هو مخلوق وليد، مهدّد بالكيد، والسّوء، والجنّ.

٣

زحفتُ. زحفت كما يزحف كل وليد. زحفت على أربع كما يزحف كل أبناء الصحراء عندما يبدأون التحرّر من أربطة القماط. عندما يبدأون الخروج من قمقم الطفولة، ويندفعون لاكتشاف سرّ الصحراء. زحفت طويلاً قبل أن أنتصب على القدمين واقفاً. للتدرّب على الوقوف أنجدتني الركيزة، لأن رحلة النسيان، لأن المنفى الذي قادني إلى المنافي كان قد شلّني، وأقعدني عن المشي أيضاً، فهبّت لنجدتي الركيزة كما أنجدت كل ركائز الأخبية كل صغار القبائل. مدّت لي ساقها الصقيل بإغواء الأجرام الخطرة. مدّت لي ساقها بإغراء الأجسام التي تخفي سرّاً. مدّت لي ساقها بإيماء الأبدان التي تبيّت أمراً. مدّت لي يدها ببهاء بدن يحمل في بهائه النبوءة. الأرض تستبقينا. الأرض تستمهلنا. الأرض تشدّنا إلى صدرها ولا تريدنا أن نفارق سَراتها إلى الأبد. وكان يمكن أن يدوم الأمر، وتصير لنا الأرض قدراً، وهقاً، أغلالاً، لو لم

تنتصب في وجوهنا الركيزة. لو لم تهرع لنجدتنا بالنبوءة. نبوءة الركيزة تخبرنا بأن الأرض ليست ولي نعمتنا الوحيد، لأن للأبناء لا بدّ من وجود الأب. الركيزة تهيب بنا أن نرفع رؤوسنا ونلتفت إلى الأعالي لنفتّش عن الأب. فهيّا إلى السبيل يا أشقياء الأسافل، تثرّبنا الركيزة، امضوا معي، تشبثوا بجذعي، وسيروا لتستكشفوا، في السماء، سرّ الأب، فلا نملك إلاّ أن نمتثل، فنستوفز قوانا، ونحتضن الساق التي تنتصب فوق رؤوسنا وتعدنا ببرّ الحنين، فلا نملك إلا أن ننطلق. انطلقت، أيضاً، مع الركيزة، ولكني، بدل أن أذهب لاستطلاع الأب الذي ينتظرني في السماوات، ذهبت لاستكشاف الأب الذي ينام في أحضان الحسناء بالجوار.

ركعت في المدخل فوجدته يتربع بجوار الموقد، يعارك نعلاً بائداً بإشْفَى مثبّتة في مقبض خشبيّ ثخين الجرم. رفع نحوي عيناً من تحت اللثام. رفع عيناً مستطلعة. ثم تبدّل الفضول، فصار الاستطلاع استفهاماً. ثم. . . ثم انقلب ايماء السؤال استخفافاً، والاستخفاف تحوّل استكباراً، تحدياً، عداوة، بغضاء. بلى. بلى. الإيماء تنقّل في طرفة العين قبل أن ينتهي إلى البغضاء. لم تفزعني البغضاء. حدّقت في البغضاء بعين الوليد الذي جاء ليتساءل، ويسائل، ويستكشف الأشياء. حدّقت بعين وليد خرج في بُغاء تميمة صارت له دمية، فأضاع السّراج الوحيد الذي يستطيع أن يفكّ له الطلسم، ويكشف له سرّ البغضاء. تلجلج، يومها، لساني كما يتلجلج لسان كلّ طفل أضاع دميته بـ «أفاتمان»، فهل يتخيّل مولاي ماذا حدث بعد انطلاق اللجلجة؟ اختفت البغضاء في عين الأب، فلمع الاستنكار، في المقلة، بديلاً. والاستنكار ما لبث أن عاد استخفافاً. والإستخفاف ما لبث أن غدا سخريّة. سخريّة حقيقية. سخريّة أوجعتني أكثر مما أوجعتني البغضاء، لأني لمحت، في السخرية، لؤماً؛ والأطفال،

الذين نزلوا ساحة الصحراء حديثاً، يستطيعون أن يغفروا أيّ إساءة، ولكنهم لا يغفرون اللؤم أبداً. لا شكّ أن في مقلتي فاضت كراهة، برغم استحالة أن تجد الكراهة طريقاً إلى عين لم تعرف، حتى ذلك الحين، إيماء غير البراءة؛ وحتّى إن كان ما فزّ في المقلة ليس كراهة، فلا شكّ أنه غضبة، وربما استنكار، وربما استنفار؛ لأني رأيت الجزء المكشوف من وجه الأب يربدّ، ويلتفت ليستشير القرينة التي تربّعت في جوف الخباء، ترتق في حجرها ثوباً، وتختلس النظرات خفية، متظاهرة، كأيّ هامّة لئيمة، باللامبالاة. ولكن اللؤم، في عينيها، غلب اللامبالاة الكاذبة. غلب حياء الزور. غلب خفر الزيف الذي اعتادت كلّ حسناء أن تقتنص به البلهاء والمريدين والشعراء. احتملتُ اللؤم في عين الأب، ولكن اللؤم في عين الحسناء كان أشرّ مما يستطيع وليد أن يحتمل. حتّى الكبار لا يستطيعون أن يحتملوا لؤم الحسناء، حتّى الأبطال عجزوا عن احتمال لؤم الحسناء، فمن أين للمخلوق الهشّ أن يطيق لؤم الحسناء؟ بعدها تحوّل لؤم القرينين إلى لغة. بعد قليل سمعت لهما صوتاً. بعد قليل تبادلا ابتسام الاستهزاء، ثم أعقبا الابتسام بضحك ساخر، عال، منفر، وكريه. ضحك يفضح نيّة. ضحك يفضح تدبيراً. ضحك يفضح مكيدة. لأن اللؤم لا يكون لؤماً حقيقياً إذا لم يخف في بطانته مكيدة. اللؤم خنقني. اللؤم تكوّر وسدّ الأنفاس في حَلقي. اللؤم هزّني واستفزّ فيّ غثياناً. أغمضت عيني، وطوّقت رأسي بيديّ. أغمضت عينيّ لأحتال على ظلمة احتجبت بها العينان.

ولكن الظلمة لم تمنعني من الدفاع عن النفس. الدوار أيضاً لم يمنعني من الدفاع عن النفس. مرارة اللؤم أيضاً لم تصرعني، ولم تمنعني من الدفاع عن نفسي، فانطلقت. انطلقت داخل الخباء. اقتحمت أركان الخباء. فتّشت أركان الخباء ركناً ركناً. فتّشت الأمتعة. فتّشت الزوايا وراء الأمتعة. فتشت غرائر الغلال

وأكياس المؤن. فتشت الأغطية والأقمشة وأكوام الملبوسات. فتشت، ولكنّي لم أعثر على القرين. حرقتني الخيبة، وازداد إحساسي بالضياع. حرقتني الخيبة، وتضاعفت في قلبي الوحشة، والخواء، وفقدان الحَوْل. حرقتني الخيبة، وسمّمني استغراق القرينين في ضحكهما المشئوم. حرقتني الخيبة فقررت أن أضع حداً للمكيدة، وأقفز للدفاع عن نفسي. احتكمت إلى المدية، وقفزت إلى الركن الذي تكوّمت فيه الحيّة. احتكمت إلى المدية استجابة لشرر الإلهام لأنّي لم أفكّر حتى ذلك الوقت في المدية. اعترضني الأب، فرأيت في عين الأب الجنيّة. رأيت في الأب تلك السعلاة البشعة التي تخفيها كل حسناء وراء الحُسْن المميت. رأيت في الأب مكيدة. رأيت في الأب مكيدتها. رأيت في الأب نواياها. رأيت في الأب مسخها، فأيقنت أن الأب لم يعد أباً، أيقنت أن الأب، أيضاً، أُستبدل، كما أُستبدل القرين يوماً. أيقنت أن الأب أُختطف، وحلّت في بدنه سليلة اللؤم، والشرّ، والمكيدة. قرّرت أن أنتقم للقرين. قرّرت أن أستعيد القرين. قرّرت أن أنتقم للأب. قرّرت أن أستعيد الأب. أدركت أنّي مهدّد أيضاً، ودوري قد حان، فقرّرت الدفاع عن نفسي. حشرجت بصوت أنكرته ما أن سمعته: «أنت! أنت! أنت!» قبل أن أهوي بالمدية. الطعنة الأولى أصابت الهواءَ، لأنَ الأب تحاشاها بقفزة إلى الوراء، ولكني لاحقته بطعنة أخرى. أدركته بطعنة مزّقت رُدْن الجلباب. نَجَا منْ لسان النصل مرّتين، ولكن لم تُكتب له النجاة في المرّة الثالثة. الطعنة الثالثة أطلقت لحناً كعزيف الجنّ، قبل أن تهوي لتنهش اللحم. تلقّاها بالكفّ، فمزّق الحدُّ النّهمُ الكفَّ، وفزّ الدّم. طوّح الكفّ الجريح في الهواء ليتّقي الضربة التالية، فتطايرت قطرات الدّم، لتستقرّ رذاذاً على وجه القرينة، فتربدّ السيماء، ويتوشوش الحُسْن في وجه الحسناء.

٤

انطلقت. غالبت العجز والوهن وحداثة العهد وانطلقت لنيل البُغية في الأخبية. اقتحت فساطيط القبيلة لأفتّش كل جُرْجُبان. يعاودني الدوار فأركع أرضاً. يمهلني الدوار فأنتصب وأسعى. أقتحم الخباء بلا مراسم، بلا تحيّة، بلا استئذان. أصدم في سبيلي الأوعية والعجائز ولفافات الصغار لأعبر الى الأركان. لم ألتفت لنظرات العجب، ولم أكترث لهمهمات الاستنكار، ولم تستطع أن توقف هجومي عثرة. في مدخل أول خباء طرحت قعب الحليب الطازج بقدمي، فسمعت الفحيح عندما اندلق وأطفأ الجمر في أرة النّار. فتّشت الزوايا والمتاع وأوعية الجلود. فرغت فاجتزت الفسطاط من الكفاء المضاد، وخطوت مترنّحاً لبلوغ الفسطاط التالي. انطلقت في أثري جلبة، ولكنّي لم أبال. أدركتني الجلبة. استوقفتني الجلبة. حاصرني الأولاد. حاصرني الأشقياء. استمهلوني ليردّوني على أعقابي. استوقفوني ليوقفوا

تقدّمي. اعترضوا سبيلي ليقتصّوا منّي جزاء الإفساد الذي ألحقته بحليبهم ومتاعهم وسكينة ذويهم. انتظرت اللّطم. انتظرت السّوء لأن من اعتاد أن يتلقّى السوء لا ينتظر من الأغيار إلاّ السوء. ولكن أطولهم قامة مدّ لي قعباً بيدين راعدتين. كان القعب ملآناً بحليب النوق. فوق السائل الطازج ما زالت تطفو طبقة كثيفة من الزَّبَد. في عين الولد رأيت إيماء لا يُنسى. هل هو شفقة؟ هل هو غفران؟ هل هو تعاطف؟ أم أنه مزيج من هذا كلّه؟ أشحتُ بوجهي وانطلقت. أشحتُ بوجهي وواصلت دربي. اقتحمت خباء آخر. عاثت يداي فساداً في متاع بيت آخر. كدرت بعبثي سكينة مقام آخر. عبرتُ البيت تسلّلاً من الكفاء كعادتي، فاعترضني كهل نحيل بيدين ملفوفتين بشبكة كثيفة من العروق. شدّني من المنكبين وانحنى حتى لامس بطرف لثامه وجهي. نظر في عينيّ، فرأيت في عينيه ألماً خفيّاً. قال بلحن لا يُنسى ايضاً: «ما أشقى الصغير إذ يخرج للتفتيش مبكّراً! ما أشقى العابر إذْ ينضم لقافلة العبور مبكّراً! ما أقسى أن نجد أعناقنا ملفوفة بأنساغ قدرنا مبكّراً! فلمَ تهبّ، يا صغيري، لملاقاة قدرك مبكّراً؟ ألا تدري، أيها البائس، أن مَنْ أساء له الخلق يستطيع أن يجد لنفسه عزاء في الأرض؟ ألا تدري أن مَنْ أغضبته السماء، لسرّ لا تعلمه إلاّ السماء، يستطيع أن يقهر إغواء الآفاق، ويهوّن على نفسه بالركون إلى صدر الصحراء؟ هل ظننت أن الصحراء كلّها ليست سوى سماء في سماء؟ هل ظننت أن للأب الذي يسكن سماء الصحراء الكلمة الأخيرة في مصائر أبناء الصحراء؟ ألا تدري أن في الركون إلى الحضيض، إلى الأرض، يكمن ترياق الداء؟ ألا تدري أن لا شفاء من قساوة الآباء، من قساوة السماء، إلاّ بالهجعة؟ فهلا جئت معي لتجرّب الهجعة؟ هلا صاحبتني لنسمع، معاً، رطانة الصحراء السفلى التي لا تبوح بوصاياها إلا لمن تخلّى وأقبل عليها مستسلما؟». ولكن الإرزيز لم يمهلني.

الإرزيز في الصدر طغى. الإرزيز زعزع بدني فانتزعت بدني من بين يدي الشبح الذي دسّه الخبأة في سبيلي ليردّني عن سبيلي. حملت الجيّار إرزيزاً في جوفي وتحاملت. تحاملت لأبلغ البرّ الذي يلي. تحاملتُ لأقتحم الفسطاط التالي. تحاملت لأفسد على أهل الفسطاط خلوتهم في الفسطاط، فصار لي الفسطاط أحبولة وشركا. تركتني العجوز الحدباء حتى انتهيت من عبثي، ثم ألقت النبوءة في وجهي: «عبثاً تفتّش البيوت، لأن ضالتك ليست في البيوت». نطقتُ. انطلق في الفم لساني فنطقتُ دون أن أدري: «أفاغمان! اين سيختفي أفاغمان إن لم يختف في البيوت؟».

ابتسمتْ بغموض الدهاة. أخفتْ ذؤابة شعرها المسربل بالشيب بطرف لحافها. سألتْ: «هل تريد أن تعرف أين يختفي؟»، لم تنتظر على سؤالها جواباً. اخذتني من يدي وذهبت بي إلى الركيزة. أسندتني إلى جرم العمود في جرجب الخباء وذهبتْ إلى الركن. عادت بعُسٍّ رحب يتململ في قاعة ماء صقيل. وضعت الوعاء أمامي، وألقت في الموقد المجاور حفنةً من مسحوق مجهول، فتصاعد من الجمر بخار. تصاعد البخار فغزتني رائحة أصابتني بالدوار. تشوّشتْ في الجؤجؤ الأنفاس، وجاهدت لاقتناص الهواء. ولكن الكاهنة لم تمهلني. طرحت ملحفة سوداء فوق رأسي، وأحكمت اللحاف حول بدني، فوجدت نفسي مطروحاً في الظلمات إلى جوار العُسّ الذي يتلاعب في جرجبانه الماء. بعد الحبس جاء دور التمائم. لجلجت فوق رأسي بلغة الأحاجي. رطنت بلسان الأقدمين والأموات زمناً. ثم استعادت لسان الخلاء في القول الصارم: «انطلق! الآن تستطيع أن تنطلق وتنتظر النبوءة عند شطآن الغدير. هل بلغت الغدير؟ هل ترى صفاء المياه في الغدير؟ عليك أن تحترس. عليك أن تتيقّن من صفاء المياه في الغدير إذا أردت الفوز بالنّبوءة». ازدادت الرائحة الفظيعة طغياناً. اشتدّ الدوار. تزعزع البدن

والتهب بالحمّى. بدأت أغالب الحمّى. رأيت أن أستلقي، ولكن العمود صدّني. اعتدلت وفتّشت حولي. فتّشت فأبصرت غمراً يتلألأ في البُعد. تحاملت وقطعت في سبيل الغمر مسافة. لم تطُل بي المسافة. بلغت الشطآن. في الخلاء القاسي، البلقع، الذي يتوعّد ولا يعد، فاض غمر سخيّ. في جرداب الخواء تغامز الغمر اللعوب، وتململ ليكتب في إيماء السّنا نبوءات لجوجة. تقدمت خطوة، خطوتين، ثلاثاً. وقفتُ فوق الصفاء فرأيت سماء في صفاء الماء، وخلاء أبديّاً بهيّاً، وقوافل وقطعاناً وأقواماً. بلى. بلى. رأيت الأقوام أيضاً. رأيت نجوعاً وماشية وخلقاً كثيراً قبل أن أسمع النداء: «أمضِ. أمضِ. لا تلتفت إلى الأمم. فتّش بين أغيار الخلق عن الضّالّة. هل نسَيت أنّك لم تقطع المسافة إلاّ طلباً للضالة؟». فتّشت، فرأيت، فصرخت: «أفاتمان! أفاتمان! لقد رأيت. لقد وجدت. لقد...» انتهرني النداء بأمر صارم: «صهْ! صهْ! شأنك أن تعرف السرّ، وشأن الجعجعة أن تلم حولَك الحُشارة، فاجتنب القوم إذا شئت أن تعود من الأسفار بالبشارة!». أخبرني النّداء باليقين، لأن القوم في هرج ينبئ باحتمال تأهب القبيلة للإنتجاع والإنطلاق في طريق الظّعْن، أو باحتمال حطّ الرحال ببلوغ أرض الكلأ. وغياب المضارب برهان على البلبلة التي تسبق الرحيل، أو البلبلة التي تعقب نهاية الرحيل. تسلّلت عبر الجموع لأقف على خبر القرين. تسلّلت فتبينته راكعاً في جوار جُنْبة بعيداً عن الزحام. ينحني على جرم بين يديه. يعاند الجرم الغامض بلهفة. حدقت لأتبيّن الجرم. كان الجرم يتململ بين أعجوبة من أعاجيب الصحراء. أعجوبة من أعاجيب الفتنة. أعجوبة من أعاجيب الإغواء. قطعة تتدحرج بين أصابعه بسُلُس، وتبهر الأبصار بألق يومئ بكلّ الألوان. تتمازج فيها السيماء كما تتنازع الألوان في قوس قزح، وتتخاطفها الأضواء، فتشعّ بوهج سخيّ لا يعكس الأضواء، ولكنه يفيض

بلون يجبّ اللون المضادّ، ويجود بضياء كأنّ للون طلمساً، وسرّاً، وخفاء. شهقت بلا إرادة. أسرني الإغواء فشهقت. أسرني الإغواء فزعزعني مسّ. زعزعني المسّ فترجرج الماء في الغدير بزلزلة. تكدّر الصفاء في الغدير فتبلبل الوميض في الجرم. انطفأ الوميض في الجرم، فغابت الرؤية، وزحفت على الدنيا الظلمات.

٥

نجتاب الخلاء نواحاً، ولا نفلت من أسر الخلاء إلاّ نواحاً. ننطلق إلى رحاب الخلوة غصباً، لأن الأغلال التي تشدّنا إلى أجواف الأخبية أشدّ من إغواء الخلاء، وأقوى من فتنة الخلوة. نركن إلى بطون الأخبية وقلوبنا تولول خوفاً من هول الوعد، من هول التّيه، من هول الظمأ، من هول الهلكة، من هول الحرية، وعندما نقهر أنفسنا، ونغلب الأصفاد في جآجئنا، وننطلق أخيراً، فيهبّ لملاقاتنا الخلاء، ويفتح لنا أحضانه، نستمرئ الأمر، ونذهب بعيداً في سبيل التّيه، في سبيل الظمأ، في سبيل الموت، في سبيل الحرية، نستهزئ بمخاوفنا، وننسى أوزاراً وسوست لنا بها أنفسنا، فلا نستصعب الخروج من المَهْمَه الخالد وحسب، ولكننا نستنكر الأوبة، فلا ننزل أرضاً انتصبت فيها هامات الأخبية إلا بقلوب تنزف فزعاً، ووجعاً، وولولةً.

يومها، يا مولاي، ولولتُ أيضاً قبل أن أحطّم أغلالي، وأقهر

وساوسي، وأنتزع نفسي من أسر الركيزة. نزعت نفسي من استعباد البيوت، وألقيت بالنفس إلى جرجبان الخلاء طلباً للبطولة. لم أذهب لملاقاة البطولة سعياً وراء البطولة، ولكنني أدركت بالخروج، أن البطولة ليست أن نقهر الأغيار، ولكن البطولة أن نقهر أنفسنا قبل أن يقهرنا الأغيار. أدركت، بالخروج، أن البطولة لا تعترف بالنجوع أو المضارب أو الأرباع التي يخيّم في أركانها الأمان، ولكن البطولة دمية فاتنة تلوّح بها الفلاة المسربلة بالوعود والإغواء والأخطار. لهذه العلّة لم تخرج البطولة للاقتران بعابر لم يعتنق ناموس التخلّي، ولم يصيّر الحنين في نفسه إيماناً وديانةً. بلى. بلى. الحنين أخرجني في ذلك اليوم. الحنين رمى بي إلى الخلاء لأني لم أطق للقرين فراقاً. لأن الخواء الذي خلّفه الحرمان من الشوّق، من النّفَس، من اللّبّ، كان أقوى من الاسترخاء المميت الذي يربيه في النفوس طول المكوث في البيوت. وصفت لي الكاهنة السبيل، فانطلقتُ. خرجت مبكّراً. استنرت بالوصايا وخرجت قبل الشروق بوقت طويل. اجتبت أغلاس الفجر، وخضت غيهباً أسدله في المقلتين النعاس، فلم أتحرّر من الغشاوة إلاّ بعد أن اجتزت الروابي الغربية المزروعة بأضرحة الأسلاف، واستسلمت للإمتداد المفروش بالحجارة الرمادية الكئيبة الذي تتبعثر فوقه أكوام حجريّة لمقابر أقدم عهداً، شوتها شموس الدهور فتبدّت أكثر سواداً، وفرّقت شملها الأقدام والأنام وتتابع سيول الأزمان، فتناثرت، وتباعدت، وانطرحت أفقاً لتقيم، بمساندة الحجارة الأخرى، فراشاً قاسياً لاستواء أبديّ مفجع. تلقّفتني المفازة الفاجعة أمداً، ولم تتراجع خلفاً إلاّ بعد أن سلّمتني لمتاهة أكثر صرامة وسواداً وقساوة، تمزّق امتدادها بنات أرض احتفرتها مياه السماء في أزمنة لم تبخل فيها السماء على الجود بالمياه، وتخلّلت الأخاديد الهزيلة أروم الثّليب ودغيلات نبت تربّل وغزته رياح الجنوب بالتّربان وأكوام الرمل. شموس

السماء حرقت عشب الأرض، وبراكين الأرض حرقت حجارة الأرض.

تخلّى السواد، وانشقّت المتاهة عن فجّ عميق، ضيّق الشاطئين، تندسّ تحت أنصاب ضفتيه أفاحيص الطير، وجحور الضّباب، وتتخبّأ في أحراش قاعة الأرانب واليرابيع والثعالب والظربان وعساعس الليل. في قاع الوادي، في جوف الصخرة، عثرت على ثغب ملآن، يتلألأ بماء خلّفه غيث غيمة طائشة، فارتويت، واستلقيت. ثم سرحت في السفح المضاد، وانتزعت الحميّض من بين الشقوق، فأكلت، واعتليت الشعفة لأجد المتاهة في انتظاري. اعترضني سبيل وطّأته أخفاف الإبل ووسّمت به الصحراء أقدام الرعاة والسابلة وأصحاب القوافل؛ السبيل الذي تغنّت به الكاهنة في وصيتها فقالت أن أجيال القبائل لم تعرف عابراً استدرجته الصحراء بالتّيه ما لم يركب الأبله رأسه ويحيد عن كنز حفره له الأوّلون بأقدامهم، كما حفروا له الآبار بأيديهم، ليكون له في الأرض ناموساً. قالت أيضاً أن الأسلاف لم يتركوا للأخلاف قلل الفخار الملآنة بهباء التبر المدسوسة مع عظامهم في أضرحتهم، ولكنهم تركوا لهم «آنهي» ناموس السماء، وتركوا السبيل ناموس الأرض، وحذّرتني من مغبّة الاستهانة بالسبيل إذا أردت ألاّ أذهب، بقدميّ، الى وطن التّيه. السبيل أخدود الأرض، ولكنه تعويذة المسافر. السبيل جرح في الحضيض، ولكنه قبس العابر. السبيل خدش يداس بالأقدام، ولكنه الحرم الوحيد الذي يعصم من هلاك، ويقود إلى نجاة. السبيل يندب أرضاً، ويصعد كُدْيةً، ينزل هاوية، يتسلّق جبلاً، يقهر مفازة، يغيب في بطون الأودية، ينزل أوطاناً، يعبر أوطاناً، ينحرف شمالاً، ينكسر غرباً، ينعطف جنوباً، يولي شرقاً، لأن السبيل ربّ لا تعترضه العقبة، ولا يعترف بالمتاهة، ولا يعرف لنفسه حدّاً، ولا يأمن في مسيره أرضاً، ولا يؤمن بالواحات، ولا بربوع

القبائل، مستقراً، فلا ينزل إلاّ ليصعد، ولا يهوي إلا ليتسلّق، ولا ينحرف إلاّ ليرجع، ولا يدرك إلاّ ليمضي، ولا ينتهي إلاّ ليبدأ، لأنه سليل عاهد أن يعبر، لأن ناموسه أن يعبر، لأنه، بالعبور، صار للعابر وطناً.

السبيل عَبَرَ بي أيضاً. عبرتُ السبيل بناموس السبيل الذي يضع التسليم وهقاً في عنق المريد كما يليق كلّ ربّ أن يفعل بكلّ مريد. انحرف شمالاً، وارتقى ارتفاعاً مغموراً بصخور فظيعة، ولكنه تلوّى، كما يتلوّى لسان الماء في وجه العقبات، واحتال على الصخور كما تحتال الحيّات. اندفع غرباً، ودخل أدغال عليق تكدّس في أرومه أكوام الرمل، ودوائر التربان، صعد عرقاً سمحاً، مفروشاً بالحصباء الحمراء، مكسّواً في البُعد، بأنصاب مكابرة بنيت جدرانها بحجارة مربّعة الشكل، هائلة الحجم، نحاسيّة اللون. الأوائل أقاموا الأنصاب في الارتفاع الذي يشرف على حقول الأضرحة المهيبة. لم يجتنب السبيل الأنصاب، ولم ينحرف ليتحاشى حقول الأموات، ولكنه أخذني من يدي، أخذني من قدمي، ولم يتخلَّ عنّي حتى أوقفني عند أعتاب الحَرَم. كان نصباً معتدل القامة، متوّج بتلك الشعفة المثلثة الأضلاع التي أورثها الأسلاف للأخلاف رمزاً محفوراً في كلّ صلد، أو صخر، أو جدار، أو رسم، أو إيماء، ولكن الرياح انتهكتها، فأطاحت بحَيْدها الأيمن، وخرّبت رموز الأبجديّة القديمة المحفورة في صدر المثلّث، في حين عبث لصوص الكنوز بجوف النصب كما عبثت الرياح والأمطار وشموس الزمان بجرم النصب المفتوح على العراء. استخرج المغامرون الأحشاء بحثاً عن التبر، فتبعثرت وراءهم ألواح الحجارة الملساء، وضلفة رحى لطحن الحبوب، وقطعة حجرية كروية، وحلي حجريّة مثقوبة، وأوان فخاريّة منمنمة ومحطّمة، وشظية حجريّة ظلماء اكتشفت فيها زنداً، فالتقطتها ودسستها في جيب جلبابي قبل أن أهبط المنحدر

المفروش بالدوائر الحجرية الكثيفة التي تتشبّث بالسفح كدمامل خرافية على جسد هامّة خرافيّة. الدمامل المقدّسة لم تفلت أيضاً من طمع اللصوص. بُغاة الثروات نبشوا شعاف القبور، وفتّشوا أجواف الأضرحة الأعظم حجماً، واستخرجوا الأحشاء، وبعثروا المقتنيات الحجرية والفخارية، بعد أن استولوا على المقتنيات الذهبية. في الوهدة السفلى تضاءلت الأضرحة، وقلّت حشود القبور، فتكاثف الثّليب المتيبّس، وانتشر عليق دبّ فيه الرّهل والرّبل والذبول فتفتّت، وتشتّت، وتطاير مع كل غارة من غارات الرياح. صعدتُ التلّ المضاد، فتلوّنت الأرض في وجهي، وارتدت زيّاً آخر. إنقشعت الكآبة التي تلبّست أجرام الحجارة، وزالت من الأتربة ألوان الرماد والسواد، وهلّل الخلاء ببساط تتسامح فيه الأرض حيناً، وتتألق فيه الحجارة بالبياض حيناً، وتلين في مساحاته التربان، وتحدودب في أجنابه ألسنة الرمل بمتون الفتنة والأسحار حيناً. في حواف العروق الرملية الطارئة تنوس أجذال الحلفاء المتربّلة بحزن النباتات التي لا تحيا ولا تموت، بحزن النباتات التي قُدّر لضنئها أن يحيا أبداً، وكُتب على شعافها أن تموت أبداً؛ لأن أصولها إذا ارتوت بمياه الأمطار مرّة، احتفظت بمياه الأمطار إلى الأبد، وفروعها إذا ماتت بنيران الشموس مرّة، تسربلت بالأحزان، وتكفّنت بالنوح إلى الأبد، فصارت زائلةً، لأن الاخضرار لا يعرف إلى أوراقها سبيلاً؛ وصارت خالدة، لأن الظمأ لا يعرف إلى أصولها سبيلاً. في البُعد، في برزخ الآفاق الذي تستحوذ عليه زرقة السماء العارية، تسامت الشعاف الجبلية الثلاث التي حدثتني عنها الكاهنة فقالت أني سأعثر وراءها على الضالّة. تلوّى بي السبيل وعرّج جنوباً ليجتنب إكاماً، ثم عاد وانحرف غرباً لينزل شعاباً هزيلة سدّت على رياح الجنوب السبيل لتستعير منه أتربة ورمالاً تدسّ فيها بذاراً تنبتها كلأ عندما ترتدّ الرياح على أعقابها لتأتي من الشمال بالغيوم المحمّلة بالسيول.

انكسر عناد الشمس أخيراً، وتزحزحت في سفرها غرباً، ولكن ألسنة السراب مضت تتناهب القمم الجبلية التي ترتفع فوق خط الأفق في البُعد. فكرتُ في مسلك الشمس، وأدهشني أنها لا تولد من آفاق الشرق لتعبر إلى آفاق الغرب كما يليق بكل عابر، ولكنها تنساب لتحتلّ في قلب السماء موقعاً لا تريد التنازل عنه بيسر. تتسلّل لتستولي على وطن تتّخذه عرشاً، فتتنكّر للناموس، وتستنكر العبور، وتقاوم طويلاً قبل أن تُجبر على التخلّي وتقبل التزحزح في سبيل الغرب. اليوم أيضاً تشبّث القرص بوطنه في قلب السماء زماناً أنساني وجود الغروب، وظننت أني أستطيع أن أقطع الصحراء، وأبلغ جبال البعد، وأدرك الضالّة قبل أن أشهد لمولاة السماء انكساراً. ولو لم يختر لي الخفاء الخريف للخروج ميعاداً، لنالتني مولاة السماء مبكّراً، ولفتك بي الظمأ قبل ان تتغيّب مضارب القبيلة عن بصري. سرتُ حتى هوى القرص. سرت حتى تخضّب الأفق بنزيف الدّم. سرت حتى تسربل الخلاء بستور الغيهب، ولكنّي لم أقترب من الجبال خطوة. ظلّت القمم الثلاث تتمايل في غلالات البعد بإغواء الكائنات المستحيلة، بإغواء الكائنات التي تُرى بالعين، ولكنها لا تدرك باليد؛ بإغواء السماوات، أو نجوم السماوات، أو الأقمار، أو الشموس، أو المجهول. بالنهار استعارت من ألسنة السراب لحافاً، وبالمساء انتزعت من قبس السماء غلالة. هيمنت الغياهب في الأسافل، ولكنّ القمم المرفوعة إلى أعلى مضت تتفيّأ في السَّنا المستعار من السماء، وتتميّل تميّل الحسناء.

تلبّست الصحراء لحاف الليل، ولكن هلالاً وليداً أفلت من أسر قزعة عابرة، وغزا الأسافل بضياء شحيح، ولكنه كاف لتبديد جحافل الظلمات الغازية. تركت السبيل، وركنت إلى خلوة تنتصب فيها طلحة وحيدة. هجعت في أصل الشجرة، وتوسّدت ذراعي. أغمضت عيني لأغفو، ولكن السبيل الصارم الذي يشقّ

الصحراء بدهاء الحيّات، ويحتال على العراقيل في مسيرة الأبد، ما لبث أن اقتحم المقلتين، فرأيت نفسي في الدرب عابراً. فتحت عيني وانقلبت على قفاي. سافرت إلى السماء، وتلهيت بإحصاء الأنجم، ورجمتني المملكة بالشهب. أغمضت عينيّ مرّة أخرى، فانشقّ عن السماء الدرب، رأيت السبيل يهجر الأسافل، ويتخلّى عن الصحراء، وينطلق ليكتسح السماء، فابتسمت، لأني تذكرت أن السبيل لن يكون سبيلاً حقيقيّاً إذا لم يتحرّر مرّة من أغلال الأرض، وينطلق ليشقّ طريقاً الى السماء. تذكرت أن السبيل أيضاً حليف التّيه، السبيل أيضاً سيقود يوماً إلى رحاب التّيه. إذا لم يجد لنفسه منفذاً إلى السماء، إذا لم يفرّ إلى المجهول الذي لا تعد به إلاّ السماء. تذكرت أن العابر لا ينطلق ليسلّم أمره بيد السبيل إذا لم تتململ في جؤجوئه النبوءة التي توسوس له بأن كل سبيل يشق الحضيض هو تيه في تيه، ولا يعصم من لعنة التّيه إلا السبيل الذي ينحرف في مكان ما، ليفرّ إلى الوطن المجهول في السماء. فهل قرّر سبيلي أيضاً أن يستقرّ في الأرض، تأهباً للفرار إلى رحاب السماء؟ هل حان ميعاد الإلتحاق بالقافلة التي سبقتني إليها الأم يوم رأيتها تفرّ في شعاع البدر ساعة انحنى من عليائه ليقبّل نصل المدية الملوّثة بدماء النحر؟ ولكن كيف يحقّ لي أن أذهب إلى الوطن دون قلب؟ كيف سيقبلني الوطن إذا أقبلت عليه ممتطياً صهوة السبيل دون أن آتي برفقة القرين؟ ألا يحسن أن أنطلق الآن، في الحال، في سبيل الأسافل، وأدرك الضّالّة خلف أسوار الجبال قبل أن يتوقّف سبيل الأرض بالسبيل، ويستعير من المجهول جناحين، يفردهما ليحملني الى وطن المجهول؟ فبأي حقّ أهجع بجوار السبيل إذا كانت الضّالّة تنتظرني وراء الجبال، وسبيل الصحراء ينتظرني كي يقلّني إلى سبيل السماء؟ كيف أستطيع أن أغفو إذا كنت لا أرى في الغفوة إلا شبح السبيل؟ كيف أهنأ بنعيم الاسترخاء في الأسافل، إذا كان نعيم الاسترخاء ينتظرني في

الأعالي؟

قفزت. قفزت قبل أن أفيق من الرؤى، وانطلقت. عرّجت على الأخدود، وسلّمت نفسي لإدارة الأخدود، فهلّل لملاقاتي الأخدود. تلقّفني الأخدود في شقّه وفرّ بي إلى خلاء المجهول. استعنت بالهلال البكر، استعنت بوميض الهلال الشحيح لأتبيّن موضع القدم في الأخدود، فلم أدرِ أنّي خالفت الوصايا، وتنكّرت لإرادة الناموس، بذلك الخروجَ، إلا بعد فوات الأوان، إلا في اليوم التالي، عندما اكتشفت أني لم أضع قدمي في أخدود السبيل في غلس الليل، ولكنّي وضعت قدمي في أنياب التّيه. غلبني الحنين فنسيت أن الأهلّة لم تخلق لتنير لملل العابرين السبيل، ولكنها خلقت لتخدع ملل العابرين بالضوء البخيل، وتدفع بهم إلى الضّلال عن السبيل. نسيت أن الأشياء، في أضواء الأهلّة، ليست هي الأشياء. نسيت أن الوسم الذي يحضر الخلاء، في عرف الأهلّة، طريق أيضاً، ولكن خبر السبيل لا يأتي إلاّ مع بروز قرن الشمس. نسيت أن الحبل، في ضياء الأهلّة، يبدو حيّةً، والحيّة تبدو، في أضواء الأهلة، حبلاً، فكيف لا ينطرح الحفير أمامي، في أضواء الأهلّة، سبيلاً؟ نسيت، أيضاً أن للسير ليلاً ناموس لم يؤتَ من علمه إلاّ من أوتى من علم النجوم. نسيت أن العابرين الذين يجازفون بالخروج إلى رحاب السبيل ليلاً يتحصنون من كيد السبيل بتمائم تلقوها على سبيل الهبة من أكفّ النجوم، لأن التّيه لا يهاب شيئاً كما يهاب سلطان أولئك الذين امتلكوا سرّ النجوم، فعاهد نفسه ألاّ يتخذ من صاحب النجوم خصماً. نسيت الوصايا التي تحذّر من حيل السبيل، فتقول أنه شقّ مسكون بالجنّ، لأنه ركن لا يختلف عن أي ركن آخر في الصحراء. نسيت الجنّ، فأعماني الجنّ، فلم أتبيّن، في بصيص الضوء المخاتل، كيف انشقّ الأخدود، وتفرّق السبيل إلى لسانين. سار اللسان الذي حفرته أقدام الأنام جنوباً، وانحرف اللسان

الذي شقّته قبائل الجنّ بحوافر الغزلان شمالاً، فلم أكتشف إلا في الصباح أني سرت في سبيل الغزلان، لا سبيل الأنام، طوال الليل. اكتشفت سرّ التّيه، فتذكرت الوصايا التي تحدّثت فقالت أن الغزلان ليست مطايا الجنّ وحسب، ولكن تلك القطعان هي قبائل الجنّ نفسها، لأن قبائل الخفاء اتخذتها، من قديم، ماشية لتتنكّر في أجرامها عندما تقرّر إلحاق السوء بأهل الخلاء.

تذكرت، ولكن هيهات أن تنفع الذكرى، لأن سبيل الجنّ استدرجني بعيداً، فوجدت نفسي دميةً في برّ يتسلّط عليه التّيه.

٦

ولكن... ولكن ماذا أرى؟ أليست جبال الأمس هي التي تنتصب، في البُعد، لتواصل العراك مع ذيول السراب؟ كيف كابرت الأجبال واستَعْلت لتناطح الفراغ دون أن تقترب من موقع الأمس خطوة، ودون أن تبتعد عن موقع الأمس خطوة أيضاً؟ أم أن شرع التّيه هو الذي تولّى الأمر، فسرى بالعابر ليلاً، وهام بالشقيّ هنا وهناك، ليبقي على العلامة، وليحفظ بينه وبين الغاية المسافة كما اعتاد اللئيم أن يفعل مع بقيّة الأنفار في قافلة التّيه؟ دخلت أرضاً مزروعة بحجارة منصوبة كمخالب الوحوش. فوق الهامات المشوبة بالزرقة، المخرّبة بالتجاويف والندوب، تدفّقت ألسنة السراب العنيد، واشتعلت المفازة القاسية بنيران حرّ مبكّر، فأحسست بالظمأ قبل الأوان. تابعت سبيل القطيع حتّى ابتلعتْ له الحجارة الوحشيّة كل أثر. فرّ سبيل الجنّ كما يليق بأيّ سبيل حفرته حوافر غزلان الجنّ، فسمعتُ أقدامي تركل الحصباء،

وتصدم قطع الحجارة، في خطو بليد أثار سخريتي قبل أن يثير سخرية المتاهة. خطوات بلهاء، ضائعة، وحيدة، عاجزة، لا تعرف من أين جاءت، ولا تدري إلى أين تمضي. تسمّعت لخطوي، فامتلأ جؤجوئي وجعاً مجهولاً، حتى أن دمعاً حاراً فزّ من عينيّ. ولكنّ اليأس لم يوقفني. حاربتني أنصال الأنصاب الحجريّة المعادية، فتقافزت لأحتال على العدوان. وضعت الأجبل نصب عينيّ، وسرت أتخطّى الأسنان الحجرية بوثب المعاند. اجتزت حقول الوعر قبيل انتصاف النهار، وعثرت على بعر الغزلان طازجاً قبل أن أبلغ الوديان الضحلة. عثرتُ على حبّات البعر فوق الألواح الحجريّة التي أفضت إليها الرقعة الصخرية الوحشيّة. طحنتها بين يديّ فانكشف الفتات عن عشب مهروس موشّى بحبيبات البذار وقمش العشب اليابس. أدركت أن قدمي فقدت سبيلها إلى سبيل الخلق، ولكنها لم تضيع السبيل إلى سبيل الجنّ. أدركت أن أرباع قبيلة الخفاء ليس بعيداً، لأن مرتع الغزلان يستلقي في موقع قريب. على أجناب الوادي المسطّح فاجأتني أعشاب القصيص الأخضر، وأبصرت قُلاع الكمأ على بُعد خطوتين قبل أن ألتقط أنفاسي. استعنتُ بالمدية لاقتلاع أول لقية. كانت جُبْأةً دكناء، متوسطة الحجم، موسّمة بسيماء مبهمة، في أسفلها تعلّقت حبيبات الرمل وكتل الطين. جرّدتها من الأوحال والأتربة وطفيليات الأرض، ورفعتها إلى أنفي. رفعتها إلى أنفي فرمتني، بضربة، إلى أبعد منفى. تنفّستْ في أنفي عبير السيَر، تنفستْ ريحاً أيقظ الشّعْر، وأشعل اللحون، فاستيقظ في القَلب الشجن، وأعقب الشجون الحنين، والحنين هو الذي فزّ ورماني في المنفى. ترنّحت كما يترنّح بالجوار نبات القصيص، وتأوّهت كما يتأوّه كل مجدوب، ونسيت السفر، نسيت التّيه، نسيت الضالّة التي تنتظرني وراء أجبال البُعد، نسيت الظمأ، فغنّيت. سمعتُ صوتي يترنّم بلحنٍ سمعته لأوّل مرّة.

ولكن الغناء لم يقعدني عن التقاط الكمأ. بل أيقظ في صدري حماساً نال منه الظمأ والتّيه وإعياء السبيل. أنحني على كلّ بروز انتهك استواء الأرض، وشقّق سطوح الطين، مشيراً إلى الموقع الذي حلّ فيه الكنز، وأستعين بنصل المدية لاقتلاع الكنز. توقّفت عن الغناء والتقطت في أصل الكمأة تراباً نديّاً. التقمت الحفنة وملأت بها فمي. استنزلتُ في اللسان لعاباً بعون الطين البليل الذي جادت به غيمة عابرة على هذا المكان، وبخُلتْ به على كلّ مكان. استدرّ التراب لعاباً، ولكنّ التراب لم يرو من عطش. اخترت ثمرة شهيّة مدوّرة، سمينة، منمنمة بيد الخَفاء، من نوع الجبأة المعتم الذي يميل في لونه إلى الحمرة، واعتصرتها في فمي. نزّ منها سائل شحيح لم ينهل منه الفم، لأنه سرى على أصابع اليد، ولكنه لم يكن بالسّخاء الذي يحيله إلى قطرات. تفتّتت الشحمة الشهيّة بين الأصابع، وتساقطت ممزوجة بالبلل الذي اكتنزته في لحمها. راعتني الخسارة فتلقّفت بفمي الفتات المبلّل بالعصارة. مصصت الخليط الخطر، ولكن الظمأ كان أقوى من الحذر. ابتلعت المزيج بنهم الظمآن، ابتلعت المزيج بيأس الظمآن، ابتلعت المزيج بأمل الظمآن في النجاة من بليّة الظمأ. لم أكتف بابتلاع الخليط، ولكنّي التهمت الكمأة كلّها. الظمأ غلبَ الوصيّة، وجبّ الإرادة، وعطّل العقل، ففزّ الفم ليلتقم ثمرة الخطر. انسابت اللقمة عبر الحلقوم دون مضغ. عبرت اللقمة إلى الجوف قبل أن أستدرك وأتدارك الأمر. سقطت الثمرة في الأحشاء قبل أن أدرك ما أفعل وألفظ من الفم اللقمة. استقرّت الثمرة في الجوف فانتابت البدن قشعريرة في الحال. لم يتأخّر الخطر فارتجفت بحمّى، وزعزعني الدوار. طارت أجبال البعد وانقشعت من الآفاق كما ينقشع السراب. فرّت الصحراء من وطن الصحراء، وغزت الدنيا ظلمات. تخلّت الشمس عن مقرّ الشمس، وخالفت ناموس المدار لأني رأيتها تتوارى نكوصاً على

أعقابها بدل أن تسلك سبيل الغروب. فرّت الإكام، وتبدّد القصيص، وأحسست بجسدي يهوي، بخفّة الزؤان، إلى الهاوية. لا أعرف كم استغرق مكوثي في الهاوية، ولكنّي وجدت نفسي ملوّثاً بالقيء ما أن عدت إلى نفسي. تقيأت في غيبتي، فتحرّر جوفي من ثمرة الخطر. تقيأت فلم تلفظ أمعائي غير فتات الكمأة وبقايا الأعشاب التي أكلتها بالأمس في أجناب الوديان. أفقتُ، ولكنّ الوهن شلّني وأعجزني عن النهوض. التصقت ببدن الأرض، وعاركت شعاعات الشمس التي استعادت مقرّها، واستبدّت بالخلاء من جديد. أغمضت عينيّ واستنكرت حمقي ما أن استرجعت الهجمة. استنكرت إنكاري لوصيّة الأجيال التي تغنّت بالكمأ هبّةً خفيّةً بَذْرتُها بصقة الجنّ، وعروقها شرر البروق، وسلسبيلها دموع السحب الطائشة التي لم يجد أهل الصحراء لأطوارها تفسيراً، لأنّها لا تُقبل في جحافل الغيم الذي تدفعه إلى الوطن رياح الشمال؛ ولا تأتي في سحب الغرب التي تجود على الصحاري بالمطر الثجيم الذي يسقط رذاذاً، ولكنه يستمر أياماً وأياماً عندما تعترضه الرياح المضادّة وتوقف مسيرته إلى جهة الشرق؛ ولا تتولّد في سماء الصحراء كما تتولّد السحب الكاذبة التي تتكاثف في غيوم حقيقية، وتشتعل ببروق حقيقيّة، وتقعقع برعود حقيقية، ولكنها تنقشع وتتبدّد لأنها سحب من جنس آخر لا يبدعها الغيث، ولكنها تتلبّد بزوابع الغبار، وتتبدّد كما تتبدّد زوابع الغبار. السحب التي تهبُ الهبة الخفيّة سحب خفيّة لا تهجر سماء الصحراء، لأنها لم تقدم على سماء الصحراء، تصطفي تراباً خفيّاً أيضاً، لأن القصيص نبتة خفيّة تختار الأرض ولا تهب نفسها لكل تراب، فلا تحبل الأرض بأجنّتها إلاّ بلقاء الخفاء مع الخفاء، إلاّ بقران خفاء السماء بخفاء الصحراء، لأن طلسم الخفاء شرط ميلاد كل كنز، والنّار صارت لنيل الكنز سرّاً، لأن الأجيال جرّبت أن النار مفتاح كل كنز،

والتّبر لا يصير كنزاً، لا يصير ذهباً، إذا لم يتحمّم في أتون النّار، والكمأ لا ينقلب ثمرة من ثمار الواحة الضائعة إذا لم يتحمّم بألسنة النّار؛ بل ينقلب الأمر عكساً بغياب النّار: التّبر يتحوّل غباراً، والكمأة تنقلب سُمّاً مميتاً.

٧

استيقظت بمرارة في الفم، وجفاف في الحلقوم. نجوت من السموم، ولكنّي لم أنجُ من الظمأ. تحرّر البدن من الحمّى، ولكن الجوف ازداد يبوسة. ولّى عنّي الغثيان، وتخلّت الصرعة، ولكن تضعضع الأطراف غلبني وأعجزني عن القيام. في السماء توارى الهلال البكر، وترك هزيع الليل لحشود النجوم. توعّدني سكون الخلاء بالعزلة، ولكن زحام الكواكب أوْمَأ، وتلهّى، وتكلّم بألف لسان، فألهاني، ولاعبني، وأخرجني من عزلتي. سبحت بعيداً، واقتربت من عناقيد اللآليء كثيراً، وغبت في منازل أجرام الغموض طويلاً، فنسيت، واستأنست، وهان عليّ أمري. استأنست بفلول النور، التي تنزرع في رحاب السماء الأبديّة انزراع الحصباء في متاهات الخلاء، وعاشرت قبائل المجهول في أوطان المجهول، ولاحقت السرّ رغم أنّي لم أدرك السرّ، فابتعدت، وتهتُ، ونسيت. فررت من تيه الأسافل إلى تيه

الأعالي، فأنساني التّيه تيهاً، وحبس السفر عني وحشة الإنقطاع، وخفّف في جوفي غلواء الظمأ.

لا أدري كم استغرق غيابي، ولكن ما لا أنساه أني عدت بنبوءة في الجعبة عندما عدت إلى الحضيض. استلهمت من رحلة السماء كنزاً منسياً وضعه الأسلاف بالأمس في جيبي، فاستهنت به وأهملته فناله منّي النسيان: الزند! لقد تذكرت في التّيه السماوي زند الأمس؛ فكيف ابتلعتُ كنز الخفاء نيئاً، وفي جيبي ترقد شظية الطلسم التي تحيل الهباء ذهباً، والجبأة فاكهةً من فواكه الواحات؟!

استعنتُ بمرفقي وتزحزحتُ جانباً. زحفت نزولاً مع لسان الشعبة الممزّقة بسيوف رمليّة هزيلة، تزداد كثافة كلّما اعترضتها حَرْجَة، أو قيصوم، أو عليقة، أو ثليب أصاب أرومه الرَّهَل. احتفنت الحصباء، ورجمت بها الأروم تحسّباً لهوام الأرض، واجتناباً للحيّات التي تخنس في أصول الأحراش، قبل أن أمدّ يدي لأجتثّ القشّ. ملأت قبضتي حصىً وحجارة ورجمت الحرجة التالية استشرافاً للأخطار، ثم مددت يدي لأحتطب. أزحت فرشة الأحجار، واحتفرت للأحطاب أرة كوّمت فيها القمش، وأخرجت من جيب الجلباب الزّند، وعكفت على الحفيرة لأستخرج من القطعة شرر الكنز. تطاير السَّقَط، وفرّ الشّرر إلى كل الأجناب، ولكن السرّ لم يتمرّد على قمقمه، ولسان النّار لم ينطلق. قَدَحْتُ حتى أقعدني الوهن، فتوقفت لاهثاً. التقطت أنفاساً، واستقطعت بالمدية طرف الجلباب خرقةً، شددت الخرقة إلى حدّ الزّند، وعدت أقدح. لا أذكر كم استغرق جهادي، ولكن السرّ انبثق من قمقمه أخيراً، وفاحت في قطعة الكتّان رائحة النّار. حشوت الخرقة في كوم الهشيم، وبدأت أثقّبها بأنفاسي حتى التقم السرّ الوقش، وهبّ في الكوم اللسان. أطعمت اللّسان أحطاباً، فارتفع اللهب، واندثر الليل،

فاستأنست بالصحراء، ولكن أنجم السماء فرّت من سماء الليل، لأن أُنس الأرض يطرد أُنْس السماء، لأن أُنْس السماء من حزْب لا علاقة له بحزْب الخلاء.

نهضت. تَرنّحت حتى بلغت موقع الكمأ. احتضنت حبّات الكنز عائداً. انتزعت من الشجيرات أحطاباً جديدة. مددت النّار بالعيدان. أزحت بالمسْعَر جمراً، ودفنت في وعوثة الملّة جُبْأةً، جبأتين، ثلاثاً. لم أنتظر طويلاً. استخرجت قطعةً فوجدتها تتوجّع بهسيس مكتوم، وتنزف سلسبيلاً كالدّم. راعني ضياع الماء، فرشفت السائل الذي غمر الجرم. رشفت بجشع. رشفت رغم شدّة غليان الفيض. حرق السائل شفتيّ ولسع لساني، ولكن الحاجة إلى الماء كانت أقوى. جفّ النبع فنهشت القطعة بأسناني. تدفّق البلل مرّة أخرى، فالتقمته ممزوجاً بالشحمة السريّة. التهمت الجبأة لأنهل من النّبع الذي تخفيه الكمأة في شحمتها. مدّني النّبع بالسّرّ. أحياني النّبع، فاستخرجت القطعتين، ودسست في جوف النّار قطعاً أخرى. شربت من مياه قطع كثيرة عندما انتصب فوق رأسي الشبح. في البداية تجاهلته. تجاهلته لانشغالي بالكنز. تجاهلته لأن الظمآن هو المخلوق الصحراوي الوحيد الذي لا يرى ولا يسمع ولا ينتبه إذا غاب الماء، كما لا يرى ولا يسمع ولا ينتبه إذا وجد الماء. الظمآن غائب بغياب الماء، والظمآن غائب بحضور الماء. لأن الماء إله معبود في غيابه، ومعبود في حضوره. إذا غاب الماء أخذ الكائنات في عبّه، وإذا أقبل الماء أخذ الكائنات في عُبّه، فإلى أيّ مستقرّ يفرّ مريد الماء؟

ولكن الضيف أعادني من المستقرّ. الضيف انتزعني من وطن الماء وأعادني إلى وطن الأرض. الضيف أقعى في وجهي وأخذ كمأة كانت بين يديّ. مدّ يداً في هزال العود، مفتولة بشبكة من العروق الكثيفة، وسحب القطعة من بين أصابعي. انتظرت أن يرمي بها في جوفه. انتظرت أن ينهش أطرافها البليلة بنهم

الظمآن. ظننته قريناً في التّيه. ظننته عابراً أضاع السبيل مثلي فساقته النّار إليّ. ولكن العابر لم يلتقم الكمأة. العابر انحنى على الكنز. اقترب بالقطعة المغمورة بالفيض النّبيل إلى لسان النّار، وبدأ يتفحّص السيماء باهتمام العرّافين عندما ينهمكون في فكّ طلسمات النبوءة. كان نحيلاً، ملفوفاً في لثام حالك، يطرح على منكبيه ثوباً كئيب اللون أيضاً. وجنتاه البارزتان من وراء اللثام موسّمة بتجاعيد عميقة. في عينيه ألق صارم لا يتناسب مع رهل البدن.

لا أخفي على مولاي أني فرحت. فرحتُ بلقاء العابر رغم علمي أن العابر للعابر عدوّ. فرحت لأني تعلّمت أيضاً أن العابر لا يكون عابراً إذا لم يلتقِ في السبيل عابراً. فرحت لأني سمعت العقلاء يقولون أن العابرَ يصير تائهاً إذا لم يلتقِ في الطريق عابراً حتى لو كان هذا العابر عدوّاً أقبل ليرفع في وجههَ سيفاً أو رمحاً أو مديةً. فرحت فسألت:

- هل مولاي عرّاف؟

أجاب في الحال. أجاب كأنه توقّع السؤال. أجاب دون أن يرفع رأسه عن القطعة التي تتنقّل بين يديه:

- كلّنا عرّافون!

- كلّنا عرّافون؟

- لا يخرج سليل الخلاء إلى الخلاء إذا لم تكن له النبوءة غاية.

- هل جاء مولاي عابراً أيضاً؟

سألت ثم استدركت لأوضح السؤال بسؤال:

- أردت أن أقول: هل ضلّ مولاي السبيل مثلي؟

أجاب بلا اكتراث:

كلّنا أهل ضلال!

أردت أن أقول أني خرجت في طلب بُغْيَة، فرأيت أن أستضيء بالهلال وأمشي ليلاً، فاستغفلني التواء السبيل، وقادتني

حوافر الغزلان إلى التّيه ...

قاطعني ببرود :

- الصحراء لم تستثنِ أحداً من لعنة التّيه ، فلا تيأس !

- هل يستطيع مولايَ أن يدلّني على السبيل؟

- لا يدلّ الإنسان إنساناً إلى السّبيل .

- قالوا لي أن جبال البعد ستكون لي علامة، ولكن أجبال البُعد تبتعد ولا تقترب .

- هيهات أن يدرك العابر جبال البُعْد!

- ما زلت غرّاً، يا مولاي ، لكي أفهم لسان مولاي .

- وضعوا لَكَ جبال البعد علامة ، ولكنّهم لم يضعوا لك جبال البعد غاية .

- الحقّ أني لا أفهم .

- ضع الجبال نصب عينيك، ولكن لا تطمع في أن تبلغ الجبال، ولَا تحاول أن تعثر وراء الجبال عن البُغْيَة .

- هل يقرأ مولاي نبوءة؟

- كلّ ركن في الصحراء علامة ، كلّ جرم في الصحراء نبوءة .

أعاد اللقية إلى يدي وابتسم لي بغموض . في عينيه رأيت إيماء الصرامة ، فانتابتني قشعريرة مجهولة . انتابتني القشعريرة المجهولة التي تغزونا لتنبّهنا إلى وجود الكائنات المجهولة . زعزعني الإلهام فسألت باستنفار السلالة الأنانية التي لا تريد أن تشرك بالصحراء أحداً، فترفض الاعتراف بوجود الكائنات المجهولة :

- هل مولاي إنسان، أم جان؟

أجاب ببرود يليق بمسلك الكائنات المجهولة :

- لا فرق بين إنسان وجان. الإنسان في الصحراء جان، والجان في الخفاء إنسان!

فزّ واقفاً . تأهّب للإنطلاق فانطلقت من صدري استغاثة :

- هل يريد مولاي أن يهجرني؟

- كل لسان مهجور. وجدتك مهجوراً، وأتركك مهجوراً.

- الا يريد مولاي أن يدل تائهاً إلى السبيل؟

- لا يدلّ التائه إلى السبيل تائهاً!

- الا ترى أنّي بلا ماء! لا أريد من هذه الصحراء إلاّ جرعة الماء!

- لو جادت الصحراء على سلالة الصحراء بالماء لَفَقَدَت الصحراء لقب الصحراء. لو جاد التائه على التّائه بالماء لما صار التّيه للعابرين قدراً.

انطلق شمالاً. انطلق، فانطلقت خلفه. ولكن الظلمة ما لبثت أن استولت عليه على بُعْد خطوات.

٨

لسعتني الشمس، فأفقت لأكتشف أن القرص قَدْ سَمَا، والضّحى ازْلأمّ، فانطلقت. توّجتْ جبال البُعْد آفاق البُعد، وتلوّى السراب في حقوها، والتفّ غمام مجهول ليطوّق الجيد، ولكن الشعاف المحدوَدبَة انتصبت في الفراغ، برؤوسها الثلاثة، مجرّدة من كلّ قيد. كاهن الليل قرأ في سيماء الكمأة النبوءة، وأخبر أن وجود أجبُل البُعْد علامة، ولكن الجبال للعابر ليست بُغْية أو غاية؛ فإذا صدّقته فلا ريب أن الأجبال التي تحدّثت عنها كاهنة القبيلة ليست هي الجبال التي تحدّث عنها كاهن النبوءة. انحرفت يساراً، وسلّمت أمري للخلاء الساجع الذي يهجع جنوباً، لأني تذكرت أن سبيل الغزلان انعطف بي يميناً عندما ضلّلني ضياء الهلال البكر في ليلة نازعني في استرجاعها النسيان كما اعتاد أن ينازعني في كل مرّةً تعقب نزاعاً أو حَوْبة. تبرّمت الأرض ورجعت عن تسامحها فتلقفتني مفازة الحزيز المجبول

بحَلْبة حمم القدمة. فوق بساط الحزيز تلاعبت ذيول سراب سخيّ يندفع حتى يتواصل في الغمر اللئيم الذي يتلهّى بأسافل قمم البُعد، ويتلوّى ملتفّاً حول امتداد القارة في الآفاق. هالني عناد الغمر المزوّر، فاستيقظت اللهفة إلى الماء، وعاودني يأس الظمأ مبكّراً. فأيّ سرّ هو الماء الذي لا يهولنا غيابه إلاّ عندما نفتقد حضوره، ونتجاهل وجوده ما أن يضجرنا حضوره؟

ألم يكن للسماوات ربٌّ، وللأرض ربٌّ، ذلك السرّ الخفيّ الذي تغيب بغيابه الحياة، وتحضر بحضوره الحياة، برغم أن القبائل لا تنتبه لوجوده كما لا تنتبه القبائل لوجود كل الآلهة، وكما لا تنتبه لوجود الحياة نفسها قبل أن تتعرّض لخطر يفقدها الحياة؟ ألم ينقلب الماء على رأسي، في عرض الوادي، شرّاً عندما زاد حضوره عن الحدّ؟ ألم ينقلب غيابه اليوم شرّاً عندما تجاوز غيابه الحدّ؟ كيف لا يكون الماء إلهاً ككل الآلهة إذا كان بوسعه أن يُحيي إذا راق له أن يُحيي، ويُميت إذا راق له أن يُميت؟

اشتدّ الهجير. اشتدّ الهجير رغم زوال الصيف. اشتدّ الهجير رغم حلول الخريف. اشتدّ الهجير لأن شموس الصحراء لا تعترف بخريف ولا شتاء، ولا ربيع ولا صيف؛ لأن لا وجود للفصول في ناموس شموس الصّحراء؛ لأنّ الفصول تأبى أن تتزحزح، فتتشابك، وتتداخل، وتشتبك إلى حدّ يستحيل معه التمييز بين فصل حلّ وفصل زال. ففي نهاية كل فصل، وبداية قرينه الفصل، تبتدئ لعبة الكرّ والفرّ. تبتدئ اللعبة فيزحف الصيف ليلتهم كفاء الخريف كما يلتهم الجمل كفاء الجمل الذي تقدّمه في مسيرة القافلة. يتقدّم الصيف ليجبّ في عُبّه الخريف كما يتقدّم كل فصل ليبتلع الفصل الوليد، لأن الفصول، كالأجيال، تريد أن تحيا، فتتمرّد على قدر الزوال، وتغير على الخلف غارة الغريم ضدّ الغريم لتدفعه إلى المنفى ولو إلى حين. يهاجر الخريف إلى المنافي، ويتخلّى لسلفه الصيف عن المعشوقة

العارية، ويمكث في المنفى آماداً يخالها البلهاء تسليماً، ولكنه يستجمع، هناك، قواه، ولا يلبث أن يشنّ على الغريم غزواً يستردّ به المعشوقة. فمتى يقبل على الصحراء الخريف بالجحافل التي لا تقهر؟

تحلّبت عرقاً. تحلّب البدن عرقاً سخيّاً، ففقدت آخر قطرة استعرتها من كمأ البارحة. تسربل خلاء الحزيز بغلالات الخيتعور، وغرقت المفازة في سيول السراب اللئيم، فصارت لها حزم الشعاع المندفع من السماء حوالب ومنابع، وتمدّد اليمّ الكاذب، حتى تواصل في الآفاق التي تحمل على منكبها، في البُعد، جبال البُعد. فوق الألواح الحجرية المحروقة بنيران الدهور وجدتُ حبّات بعر طريّ فأيقنت أن قوافل الغزلان سبقتني إلى البيداء، فاستيقظ الأمل. استيقظ الأمل لأن الغزلان لا تذهب إلى التّيه، ولا تعبر الفلوات المميتة إلاّ لتجتاز إلى أرض ارتوت بالمطر، وتململ في مراتعها لعاع النّبت. الغزلان لا تتنادى لتلتئم في قوافل إلا لتهاجر، ولا تهاجر لتستكشف كما يستكشف رجال القبائل مواقع الكلأ، ولكن الغزلان في هجرتها كالحسناء التي لا تهجر مخدعاً إلاّ إذا ضمنت وجود المخدع البديل، الغزلان أيضاً لا تهجر مرتعاً إلا إذا اشتمّت وجود المرتع البديل. فهل يُعقل أن تتخبّأ مراتع حقيقيّة في ثنايا هذا الحريق؟

احتجب بصري بغشاوة، وداهمتني الظلمات. بدأت أترنّح وأتعثّر وأنحرف عن امتداد الصراط. لا أعرف كم استغرق عراكي مع نفسي، ولكني أذكر أني سقطت عند نزول الوادي، فتدحرجت عبر السفح. تدحرجت فسمعت جلبة، ولكني لم أدرك أن الصوت كان حقيقياً، وأن الجلبة ليست وهماً، ولكنها صوت حوافر جلوبة الغزلان الهاربة، إلاّ بعد أن شربت من مياه الثغبان. السفح هوى بي، وألقى بجسمي الى الحضيض فوجدت السائل يتألق في لوح الصلد عند قدم السفح. لم أبذل جهداً

للوصول إليه، لأن السفح لم يخطئ الهدف عندما رمى بي إلى الثغب فوقعت إلى الجوار، ولم يبعد اللوح عن رأسي غير مسافة أشبار، زحفت وحشوت وجهي في الغمر حشواً. تجرّعت رحيق الحياة لأسترجع الحياة الضائعة. تجرّعت السيولة المدهشة التي لا لون لها، ولا رائحة ولا طعم، برغم أنها السيولة الوحيدة التي تهب الكائنات اللون، والرائحة، والطعم. تجرّعت النداوة الوحيدة التي تحيينا برغم أننا نحتقرها ولا نلبث أن نركلها بالأقدام ما أن نفرغ من أمرها. تجرّعت طُلّ النبل الذي اعتدنا أن ننكره، ولا نعترف له بإحسان، ما أن نقضي حاجتنا منه لنقدّم له ولأنفسنا البرهان على أننا أكثر أم الصحراء مهارةً في نكران الإحسان. تجرّعت وتجرّعت، وتجرّعت... وعندما انتهيت، عندما استعدت العقل الضائع، ووُهبت الحياة، بدأت، في الحال، مسيرة النكران، فاكتشفت أن للسائل طعماً، ورائحة، ولوناً. اكتشفت مرارة الطعم، وحدّة الرائحة، وكدر اللون. فهل تجرعت بول الغزال؟ بالجوار عثرت على حبّات البعر الطازج، وتبيّنت على بعد خطوات آثار حوافر القطيع على تربان اعترضتها أرومة شجرة رتم، فتحقّقت من الظنّ قبيل ابتداء تلك الحمى التي أخرجتني من المنفى، وأنقذتني من التّيه، لأن مارداً مجنوناً استيقظ في صدري، فطوّحني خارج الصحراء كما طوّحني السفح لأجد نفسي أتوسّد السائل المسكون. لم أعقل الإنطلاق، ولا أذكر الفرار الذي طوى الصحراء ورائي بعد أن كانت الصحراء تفرّ منّي، ولا أستطيع أن أستعيد إلا صوت العزيف الخفيّ الذي يسمّيه عقلاء القبيلة «صوت الجن»، ويشبّهه الصغار بصفع الطير للأهوية بجناحيه ساعة الطيران، ولكني لا أنسى صوت ساحرة القبيلة التي آوت في ربوعها القرين، وهي تنحني فوق رأسي، وتتمتم في أذني بالتعاويذ، وتغمرني بأبخرة الاعشاب الكريهة، وتوبّخني بين حين وحين بصوت الوعيد: «ألا تدري، يا شقي، أن من شرب

بول الغزال كمن تغسّل بدم القتيل؟ ألا تدري أن من شرب بول الغزلان تلبّسته الغزلان؟ ألا تدري أن من تلبّسته الغزلان سكنته الجن؟». ولكن تقريع الكاهنة لم يمسسني، لأني رأيت بين الوجوه التي انحنت فوق رأسي وجهاً صار لي تعويذة أنستني التقريع، وحرّرتني من المسوخ، وعصمتني من كيد الجنّ، بل أني لم أشعر نحو عشائر الخفاء إلا بالامتنان، لأنها أنقذتني من التّيه، ورمتني في أحضان أمنيتي الخالدة، فتمنّيت أن أوتى قوّة أفزّ بعونها من فراش العلّة، لأضمّ القرين الأبدي إلى صدري، لأخبئه في جؤجوئي، وأفرّ به بعيداً، بعيداً، بعيداً، حيث نقطع عن الناس، فلا نرى الناس، ولا يرانا الناس، لا نسمع الناس، ولا يسمعنا الناس، لا نخطر ببال الناس، ولا يخطر ببالنا الناس.

٩

سرحنا. هوّن عنّي المرض فسرحنا. دخل بي المضارب، ودلّني على المسالك التي تقود إلى المراعي البعيدة حيث ينقطع الرعاة بقطعان الإبل، ونزلنا المراتع الأقرب حيث تسرح الصبايا بالأغنام، ويطارد الصبيان الجداء، ولكن نهمي لم يشبع، وفضولي لم يرتو إلاّ عندما أراني الغدير: هوّة ساجعة يتخضرب فوقها غمر لم أرَ لسخائه مثيلاً، تستلقي في حضيض أجبال مسطّحة الشعاف، تحتلّ رقعة مديدة تشرف على سهول المراتع وأسافل الوديان، تفيض شطآنها، كما أخبرني، في الأعوام التي تجود فيها سماء الصحراء بأمطار غزيرة، فتغدق البحيرة من مياهها على السّهول أوّلاً، والسهول تدفع بالنصيب إلى الأودية السفلية، فتجري القيعان بسيول لا تجري بها قيعان الوديان الأخرى. ولكن الغمر في الغدير يهوي في سنين الجدب، وينقشع منه الماء فيتحوّل أوحالاً وطيناً رجراجاً تقع في أشراكه الأنعام والحيوانات الوحشية

التي ترده طمعاً في الماء. أخبرني أيضاً أن الأوحال كثيراً ما استدرجت العابرين وأبناء القبائل الذين أفقدهم الظمأ الصواب، فاقتحموا المستنقع في بُغاء الرقعة الفاتنة التي تتلألأ في جرداب اليمّ الميّت، فتعجّبتُ كيف ينقلب الغمر الذي ينقذ السابلة والمسافرين من هول الظمأ فخّاً يستدرج السابلة والظامئين إلى الهلاك، وكان على الوديان أن تحتضن في شطآنها سيولاً كثيرة، وتتوارى في جوف وتبتلع الصحراء في بطنها أقواماً كثيرة، قبل أن يأتي الزمان الذي أوقفني على السرّ، وعلّمني أن الماء لا بد أن يصير للظمآن شَرَكاً، لأنّ العليل يستدرج إلى الموت بالترياق، والعاشق لا يهلك إلاّ بيد ما يعشق، والإنسان، في حياة الصحراء، يؤخذ بالبلسم، لا بالسُّم.

ولكن ذاك عجب سبقه عجب آخر. عجب سبقه عجبي ساعة وقع بصري على خضربة الماء في الغدير، لأني تذكرت. تذكرت غديري الذي رأيته في القعب الذي وضعته كاهنة القبيلة بين يدي، ورأيت فيه القرين. الغدير الذي صار لي رقعة قرأت فيها النبأ الذي أضاء لي السبيل، وأخبرني بحال التوأم المفقود، وتكدّر، فجأة، كما يتكدّر، الآن، كلّما داهمه موج الريح، فيتخضرب ويضطرب، فأفقدني صوابي، يومها، لأنه زعزع الرؤيا، وأذهب من وجهي القرين. بلى، بلى. الغدير لم يتبدّل. الغدير الذي عرفته هو الغدير الذي يتلوّى أمامي بسيوف شقيّة كسيوف الرمل كلما أغار الريح، ويضيق بالغمر النبيل، فيلفظ نصيباً إلى شطآن الطوق العاري الذي لا يرتوي أبداً من الماء، فوجدت في الرقص المحموم، الفتّان، اللعوب، سرّ الكدر الذي عصف بالغدير يوماً، فأفسد بهجتي، ووضع حدّاً للقاء، فأدهشني كيف احتالت الداهية لتستدرج هذا الخلاء العظيم المغمور بالمياه، بقصعة بئيسة يرقد في قاعها ماء هزيل. ولكن حيل الدهاة لم تشغلني كثيراً، لأن قطعة الصلد التي تتسربل في جوفها

الأضواء ما لبثت أن فتنتني، فاستعرتها من يد القرين، وقلبتها بين يدي محاولاً أن أكتشف سرّها: تتلاحق في صلبها أجناس الفتنة، فيتلاحق اللون باللّون، فيلد الإغواء اغواء، ويجبّ البهاء بهاء، تسود المسوح المستعارة من مسوح السماء، فإن تململ الجرم وتضعضع اكتأبت الأسحار، وضاق خناق الفتنة، واختنق الإغواء حتى يشرف على الهلاك في هجمة الحُلْبة الماردة التي لا تستقرّ طويلاً أيضاً، لأن ناموس اللهو يميتها فيتحوّل الإيماء، ويفتك قبس الشُهْبة بالظلمات فيتقشّع الطلسم، ويهلّ البصيص في قُهْبة خفيّة تتكشّف عن كُهبة، والكهبة تلقي بالكرة إلى حُسْبة تطغى في أركانها الحمرة الخجولة التي تفضي إلى الشُربة التي يتسلط فيها ألق البداية. ولكن اللعبة لا تتوقّف، لأن الغمز لا يلبث أن يتواثب ويتلاحق من جديد.

أطبقت عليها في قبضتي. أطبقت عليها لأقتل الإغواء، وأمنع نفسي من الاستسلام للفتنة. أطبقت عليها ثم دفعتها في قبضة القرين، وقبضت على قبضته بالكفّين. أحكمت القبض وحدّقت في العينين لأستحلفه. قال لي أنه عثر على القطعة في حاشية ضريح عندما جاء برفقة الأب إلى مضارب القوم، فنصّبت حجر الأسلاف بيننا ليكون على العهد شاهداً. غالبت رعدة قبل أن أتكلّم:

- عاهدني ألاّ تفارقني بعد اليوم أبداً!

حدّق في وجهي. عبرني. سرح ببصره في الخلاء حتى غاب من بصره البصر، ولم يبق في المحجرين غير الخواء. ذهب بعيداً. ذهب إلى التّيه لأني رأيت في خواء المقلتين إيماء الوجع الفاجع الذي لا يحلّ في مقلة لم تَسرْ في سبيل التّيه، فقرّرت أن أهرع لنجدته. قرّرت أن أسرع وراَءه قبل أن يختلسه التّيه ويأخذه منّي إلى الأبد:

- كنّا مخلوقاً واحداً فلماذا هربت منّي؟

تحلّب في المقلتين البلل، لأن الشقوة التي لا تجد للخروج مفراً لا بدّ أن تتخلخل وتتربّل وتذوب لتجد طريقها في الماء، في الدمع، في البكاء. ولكنّي لم أرحمه بلجاجتي:

- أحببتك، وحاربت من أجلك، فلماذا هجرتني؟

ارتجّ برعدة قبل أن يلقي بالنبوءة في وجهي:

- الأب حذّرني... الأب قال أنّك شرّير... الأب... الأب حملني إلى عمّي هنا ليخفيني عنك. الأب هرب بي ليحميني من شرّك...

حدّقت في عينيه حتى كاد جبيني يرتطم بجبينه.

حشرجتُ في وجهه:

- وهل صدّقته يا شقي؟

عاد الشقاء في العينين إلى طغيانه. اشتدّ طغيان الشقاء فعجز المسكين ورفع منكبيه يأساً. قرّرت أن أهرع لإنقاذه:

- ألا تدري أن الأب لا يتكلّم بلسان الأب؟ ألا تدري أن الجنيّة التي أدخلها المخدع قد استولت على لسانه كما استولت على بيته؟ ألا تدري أن الحيّة تكيد لي لأنها لم تستطع أن تستولي عليّ كما استولت على الأب؟

- أمّي قالت لي أيضاً أنّك شرير...

- أمّك؟! هل قلت أمّك؟ هل تسمّي تلك السعلاة أمّاً؟ ألا تدري، يا شقي، أن السعلاة لم تكن لتجرؤ على الاستيلاء على بيتنا لو لم ينحر الأب أمّنا؟ ألا تدري أنه لم ينحر الأمّ إلاّ ليخلي المخدع لقريبته الكريهة؟

- سمعت أنه لم يتنازل عن الأمّ إلاّ تنفيذاً للعهد.

- وماذا تنتظر أن تسمع؟ هل تنتظر أن تسمع الحقّ من أفواه الناس؟ هل تنتظر أن يقولوا أنه نحر أمّ ولديه ليختلي في المخدع بقريبته الحسناء؟

- ...

- لا يجب أن تصدّق ما يقال أبداً، وكلّمني بالعهد.

- كيف أكلّمك بالعهد إذا كان الأب لا يريد أن نجتمع أبداً؟

- الأب؟ لا أب لك، لا أب لي، الأب استبدلته حسناء السّوء ولم يعد لنا أباً. الأب هلك يوم جرّ النصل على عنق الأم؛ فأنا، منذ اليوم، أبوك. أنا، منذ اليوم، أخوك. أنا، منذ اليوم، أمّك. أنا، منذ اليوم، أنت؛ وأنت، منذ اليوم، أنا. قلت منذ اليوم، فأخطأت، لأن أنت أنا، وأنا هو أنت منذ الأمس، منذ وُلدنا، بل قبل أن نولد، وقبل أن نعرف طريقنا إلى بطن الأمّ، فهلا وعدتني أخيراً؟

- لا أعرف أين الحقّ، لا أعرف كيف أعد إذا كنت لا أعرف أين أجد الحقّ: لو كلّمك الأب عنّي باللسان الذي كلّمني به عنك، لأنكرتني، وتجنّبتني، وفارقتني إلى الأبد!

- صهْ أيها الأبله! ليس من حقّ الأب أن يكلّمك عنّي، أو يكلّمني عَنك، لأن الأب لم يعد أباً، فاحترس!

نكس رأسه، وسلّ قبضته من قبضتي، وتراجع إلى الوراء خطوتين. في عينيه رأيت فجيعة أفزعتني. توسّلت بصوت أنكرته:

- لا تتخلّ عنّي!

ولكنه ابتعد وبدأ يعتلي الرابية في طريقه إلى المضارب.

١٠

لم أهنأ بوجوده إلى جواري، بعد ذلك اليوم، طويلاً؛ لأن الأب أقبل مرّة أخرى، فاستلّه من بين يدي في ليلة استغفلني فيها النوم، فلم أجد في الفراش، عندما استيقظت، سوى اللقية الحجريّة التي نصّبتها حكماً لتكون بيننا شاهداً عندما حلّفته العهد. وجدت الخباء كلّه خاوياً، فقفزت خارجاً. في العراء، عند أعواد المباءة، شاهدت الأَمَة تحلب اللّبأ من ضرع عنزة وضعت جديين توأمين منذ يومين فتخلّفت عن القطيع الذي أخرجه الرعاة إلى المراتع مبكّراً. كانت خلاسية نحيلة، ذات وجه مستطيل، وعين حولاء، اشتراها قريب الأب، كما يُروى، من صاحب قافلة تجارية منذ أعوام عندما تخلّص من آخر القرينات اللائي استبدلهنّ ثلاث مرّات طمعاً في أن يفوز من أرحامهنّ بالنّسل، ولكنهنّ خذلنه جميعاً فطردهن ويئس واختار أن يقتني أمَة قائلاً أن المرأة إذا لم تنجب للرجل ذريّة، فإن الإماء له أنفع،

والخدم لبيته أنسب.

وقفت فوق رأسها، ولكنها لم تلتفت، ولم تأبه؛ ربما استغرقتها معاندة الضرع، وربما تظاهرت بأنها لم تبصرني. ساءلتها عن القرين فلم تجب. مضت تحدّق في الفراغ بعينها الحولاء وتعتصر الضرع السخيّ باللامبالاة، تدفع بيدها الجدي اللجوج بعيداً عن الضرع من حين لحين، فساءلتها عن العمّ، ولكنها لم تجب، ولم تلتفت، ولم تحدجني ببصر، فتململ في جؤجوئي المارد القديم، وبدأت أختنق بأنفاسي، وألهث. تتابع اللهاث لأني شممت رائحة المكيدة. وجرّبت أني أفقد صوابي كلما شممت رائحة الكيد. وإذا فقدت صوابي تولّت أطرافي أمر الدفاع عن نفسي، فتمتد يدي إلى الحجر، أو إلى العصى، أو... إلى المدية. ولكن يدي لم تحتكم إلى المدية هذه المرّة، ربّما لأن المارد الذي يحرّك أعضائي ويتولّى الدفاع عنّي نيابة عنّي لم يرَ في الأمر خطراً يستوجب الاحتكام إلى المدية، فاحتفنت قبضة البعر وحثوتها في وجه الأمة، وفررت في سبيل العراء الذي يستلقي شرقاً حتى بلغت ضفاف الغدير. اجتزت حدود الغدير من جهة الشمال، ولكني لم أفلح في العبور إلاّ مسافة أذرع أو أشبار، لأن الغثيان استبدّ بي، وأظلمت الصحراء في بصري، فصرعني الدوار. لا أدري كم استغرقتْ غيبتي، ولكنّي ظللت أرتجف وأعارك الحمّى حتى عندما استيقظت ووجدت العمّ يتربّع في الخباء إلى جواري: كان رجلاً مسنّاً، ولكن الرهل لم ينل لا منْ بدنه، ولا منْ روحه: حيويته لا تتناسب مع كهولته، ومرَحه الدائم يفقدهَ الشبه بالأب برغم صلة القربى، يتبسّم بلا سبب، ويستلقي إلى الوراء ضاحكاً لأتفه دعابة أو أسمج مُلحة، فأتعجّب أن يكون الإنسان الذي أراه أمامي، هو الإنسان نفسه الذي تجري سيرته على ألسنة الرواة وأهل الفضول ليقولوا أنه ذاق مرارة الذلّ على أيدي نساء استدرجنه إلى العبودية فاستسلم

لطغيانهن طمعاً في نيل الذريّة، وكان لا بد أن تجري في الوديان سيول كثيرة، وتلتهم الصحراء أجرام أبناء كثيرين، قبل أن أدرك أن أصحاب البلاء وأهل الحوبة هم أكثر ملل الخلاء مرحاً وصفاء لأنهم لن يكون بوسعهم أن يصيروا أبرياء لو لم يتطهّروا بالرزايا.

ضحك في وجهي في ذلك اليوم أيضاً. ضحك ما أن لحظ يقظتي، وانهمك يعتصر أصابع يده اليسرى، بأصابع يده اليمنى، ثم يعود فيعتصر أصابع اليمين، بأصابع اليسرى كعادته عندما يتحرّج، أو يستحي، أو يخفي أمراً، فيداور، ويحتال، ويفرّ من عيني الجليس حتى لو كان طفلاً، لأنه، في الحقّ، لم يكن يوماً إلاّ طفلاً؛ لأن الطفولة، يا مولاي، قَدَر أولئك الذين لم ينجبوا من النساء أطفالاً حتّى لو أصابهم الرهل وصاروا شيوخاً في السبعين. في ذلك اليوم رفع إليّ بصراً أوجعني، لأني رأيت الشقاء في مقلة إنسان نبيل لا لشيء إلاّ لأنّه وجد نفسه مضطراً أن يواجهني، لا لشيء إلاّ لأنه وجد نفسه مضطراً أن يحدّثني بأمر يعرف أنه لن يروق لي، بل سيكون سبباً في وجعي، فأكبرت فيه النبل، وأحسست نحوه بشفقة تحلّب بسببها من عيني الدمع، وكدت أبوح له بسرّي، وأخبره بأن الأوجاع قدري، ولن يضيرني كثيراً أن ألتقم علقماً جديداً، أو أتجرّع سُمّاً جديداً، لأني تجرّعت سموماً تكفي لإبادة أي سُمّ جديد. ولكنه فرّ ببصره، ودفن حرجه في الأصابع قبل أن يجد القدرة على الكَلم:

- أحزنني كثيراً ما سمعت من أمر خلافك مع الأب، وأحزنني أكثر أنني لم أجد لحلّ الخلاف سبيلاً، لأن تدخلي لم يشفع...

أدبرت الشفقة، وولّى الإكبار، فوجدت نفسي أقاطعه بجفاء:

- لا أريد تدخلاً، لا أريد شفاعة، لا أريد حلاً لخلاف.

تبسّم بحزن. تبسّم بحزن أحزنني ففزّ من عيني دمع جديد.

محوت البلل بيدي خفية، فسمعته يداري ربكته بضحكة بلهاء قبل أن يقول:

- أعترف أن وساطتي كانت عملاً أحمق، لأني كنت على يقين أن خلافكما ليس خلافاً من جنس يقدر على مداواته الخلق، ولكني حاولت استجابة لنداء الواجب الذي طوّق به الناموس رقاب ذوي القربى، فهل تستطيع أن تفهمني؟

تضاحك مرّة أخرى. حدجني من وراء اللثام بنظرة خاطفة، ثم أضاف وهو يواصل اللّهو بالأصابع:

- أدري أنّك تألمت كثيراً، تألمت أكثر مما ينبغي، أكثر مما يحتمله فتى لم يبلغ سنّاً يتوّج فيها رأسه باللثام، لهذا السبب رأيت أن أفاتحك بأمر ربما دفع عنك الشرور، وخفّف عنك الآلام.

اختلس نظرة أخرى. كان يخشى أن يستفزّني فأصدّه وأضع، بالصدّ، حدّاً للحوار. لهذا السبب كان يبذل جهداً قاسياً لاختيار العبارة، ويتجسّس على وجهي لاستشراف مفعول كل قول:

- أردتك أن تعلم أن العودة إلى الوراء جبن، والرجل الشجاع هو الرجل الذي يمضي إلى الأمام دائماً!

لا أعرف لماذا تذكرت جبال البُعد التي حدثني شبح السبيل في ليل التّيه فقال أنها لا تدرك، فوجدت نفسي أتساءل:

- هل يسمّي مولاي المضي صوب جبال الغرب التي لا تدرك شجاعة أم جنوناً؟

تبسّم بفرح حقيقي، بفرح طفولي، ويبدو أنه بوغت بالسؤال، فابتهج لأن الطفولة الحقيقية هي أن نبتهج بما لم نألفه. قال بروح الطفولة:

- وهل تجد فرقاً كبيراً بين الشجاعة والجنون؟

- ظننت أن الفرق بينهما كبير جداً.

- لا تخطئ! تحتاج الشجاعة إلى الجنون لكي تصير شجاعة، ويحتاج الجنون إلى الشجاعة لكي يصير جنوناً.

- عجباً!

- الذهاب إلى الأمام، نحو جبال المستحيل، لا يصير مسيرة بطولية إذا لم ينهل صاحب السبيل من نبع الجنون، فاحترس!

أطلق ضحكة مغتصبة، واستلقى إلى الوراء، ثم عاد ينكبّ على اليدين:

- مهلاً، مهلاً. لقد ختلتني وجررتني في سبيل آخر. لقد بدأنا السّمر بالتحدّث عن قبح العودة إلى الوراء، إلى النجوع حيث تشرق الشموس، إلى أخبية الآباء والأمّهات، فأردت أن أحذّرك صادقاً من خطر العودة إلى الوطن في بطون الأمهات، لأن لا وجود للبطولة، لا وجود للميلاد الثاني، إلاّ بالخروج من بطن الصحراء، ذلك أننا نولد مرّتين كلّنا: مرّة من جوف المرأة، ومرّة من جوف الصحراء، ولكن ميلادنا من جوف الجسد، ميلاد بائس لأنه ميلاد أخير تنسدّ وراءنا أبوابه ما أن نضع أقدامنا على عتبة الخروج، ولكن الخروج من بطن الصحراء أحقّ بالإكبار، لأن الصحراء هي الأم الوحيدة التي نستطيع أن نختارها بإرادتنا لننجب فيها أنفسنا.

- يحسن مولاي الظّنّ بي كثيراً إذ يحدّثني بلسان الناموس ويريدني أن أفهم.

في مقلتيه طاف الوجع من جديد. في المقلتين لاح شقاء العجز، فطغى العجز حتى اضطرّ أن يغمض عينيه. أسدل طرف لثامه على أنفه، ثم تكلّم بحزن:

- اردت أن أوصيك. أردت أن أقول لك: لا تلتفت إلى الوراء إذا شئت ألاّ تشقى. أردت أن أقول لك: إنسَ البيت، وكل ما ينتمي إلى البيت. إنسَ الأب، وامرأة الأب، وانسَ حتى الشقيق، لأن كل أولئك أمّ، كلّ ما له صلة بالأمّ فهو أمّ، كل ما يذكّر بالأم فهو أمّ، والركون إلى صدر الأمّ أمان، ولكنه ليس حياة. قدرنا، يا بنيّ، أن نحيا الحياة، ولكن الاستسلام لصدر

الأمّ خيانة للحياة.

- هبني قريني، واكتم أنفاسي بيديك إذا رأيتني متلفتاً إلى الوراء بعد ذلك!

- ها - ها - ها ... أتختلني يا شقي؟ ألا تدري أن التوأم متاع أيضاً؟ ألم أخبرك بأن كل ما انتمى الى البيت وإلى أهل البيت وزْرٌ وُجد ليميتنا، ويعرقل مسيرتنا، ويسمّم حياتنا؟ بل يهون الأمرَ لو اكتفى بتسميم حياتنا، ولكنه سيختلس حياتنا في غفلة منّا، ولن نكتشف الحيلة إلا بعد فوات الأوان.

- هيهات...

- يغفر لنا الخفاء التسامح مع فوات أيّ أوان، ولكنه لا يغفر لنا أبداً إذا تسامحنا وفوّتنا أوان الحياة.

- لا أعرف عن أيّ حياة يتحدّث مولاي إذا خلت الحياة من وجود القرين.

- لا قرين لك إلاّ نفسك، والصحراء لا تقبلك إلاّ وحيداً.

- الصحراء لا تقبلني إلاّ وحيداً، ولكن الأمّ لم تأت بي إلى الصحراء وحيداً!

- هنا يكمن الدّاء. في إنكارك الانتماء إلى الصحراء يكمن الدّاء. اعلم، إذن، أن الأمّ التي أتت بك إلى الصحراء قد ذهبت إلى بطن الصحراء، وتركتك أمانةً في عنق الصحراء. أمّك لم تعد أمّك، وأنت منذ اليوم إبن الصحراء. فاعترف بأمومة الصحراء إذا شئت ألاّ تشقى. اعترف بأمومة الصحراء إذا شئت أن تحيا.

- لا حياة إلاّ إلى جوار القرين.

- لن تعترف بك الصحراء إبناً ما ظللت تتشبّث بالأغيار قرناء!

- الأغيار أغيار، والقرناء قرناء.

- كلّ ما ليس أنت، في عُرف الصحراء، تنكّر لك.

- انا القرين، والقرين هو أنا.

– كل ما انفصل عنك، في شرع الصحراء، صار لك عدواً.

– وهل يصير الإنسان لنفسه عدواً يا مولاي؟

– بلى. بلى. نفس الإنسان للإنسان أشدّ عداوة من أدهى الأعداء، والقرين الذي تتحدّث عنه هو الوسواس، هو قرين السّوء.

– وكيف السبيل إذا كنت لا أستطيع أن أتخلّى عنه حتى لو أدركت أنه قرين سوء؟

– ولكنّك رجل، والرجل لا يجب أن يفقد الثقة في نفسه أبداً.

– لا ثقة لي في نفسي بدون ثقة القرين، لا إرادة عندي بلا إرادة القرين، لا حياة لي إذا لم أحيا في حياة القرين.

– ولكن الخفاء وهبكما حياتين وثقتين وإرادتين إذْ جعلكما مخلوقين، وفرّقكما بجرمين.

– كنّا في الأصل جرماً واحداً قسّمه الخروج إلى شطرين.

– هل أنت هو أنت، أم أنك مخلوق مسلوب؟

– مسلوب؟

– بلى. بلى. أنت مسلوب، وأنا لست ساحراً ولا عرّافاً حتى أعرف حيَل استجواب المخلوق المسلوب!

حرّرَ يديه، ورفع بصره إلى الفراغ الأبدي الذي يرابط في المدخل، فتألقت في مقلتيه دموع اليأس. تمتم كمن يخاطب نفسه:

– هيهات أن يحيا مَنْ لم يرَ في نفسه إلهاً! هيهات أن يحيا من رأى في غيره إلهاً!

١١

عن الصفقة حدّثني الأنداد. قالوا إن الأب التجأ الى إبن عمّه ليخفي في حماه وليده فراراً من شرّ التّوأم، ولكنّه تراجع ما أن بلغه خبر اهتداء الشقيّ إلى أرباع القبيلة، فأقبل ليلاً ليستردّ الوليد خلسةً، واختلى بالقريب في العراء احترازاً من آذان الإماء والغرباء وأصحاب الفضول ليسرّ له بالنيّة، ولكن فات الأبله أن السرّ يبقى سرآ إلى حين يعرف طريقه إلى ربوع اللسان، فإن تلوّى به اللسان فلن يعود السرّ سرآ حتى لو ثرثر به الإنسان المعتزل في أبعد خلاء، فإن سقط في أذن خلّ، ثرثر به لسان الخُلّ، وإن سقط في أذن قرينة المخدع، ثرثر به لسان القرينة، وإن سقط في أذن الهواء، ثرثر به لسان الريح، وإن سقط في أذن الخلاء، ثرثر به لسان الجنّ. وبرغم أن الأشقياء لم يكشفوا، في روايتهم، عن اللسان الذي فضح الأمر، إلاّ أنهم تحدّثوا يقيناً فقالوا إن الأب أخبر ابن العمّ عن نيّته في التنازل عن التوأم الشقيّ ليصير له سلالة

حرمته منها الأقدار، مقابل أن يضمن منع الشقي من العودة إلى نجوع القبيلة إلى الأبد، وحثّه، في خلوة تلك الليلة، على الصمود وابتداع التدابير في المرحلة الأولى، لا لأن القسوة كفيلة بترويض أكثر الجمال عناداً وشقوة، ولكن لأن القبيلة سترحل في طلب الكلأ إلى أرض أخرى، وإذا لم تهجر القبيلة أرباعها، فإنه ينتوي الظعون، وسينفصل عن القبيلة عاجلاً أم آجلاً وبهذا سيضيع أثر التوأم في وجه التوأم إلى الأبد. فهل أصدّق هذه الرواية الكريهة؟ الحقّ أني لم أكذّب أيضاً، لأن أطوار الأب فجعتني منذ أن استبدلته الجنّية كما استبدل الجنّ «أفانمان» في رحلة التّيه، فلم يعد يدهشني كيده، لأني فقدت الأب في الأب منذ صار دمية تتلاعب بها أصابع الحسناء. التفَّت الأغلال حول خناقي بوحشيّة ثعبان الأدغال، فقرّرتُ الإفلات في الحال. تسلّلت في غلس المساء، وركضت شرقاً. تمرّدت على التحريم، وفررت إلى الوراء. نسيت التحذير، واقتحمت سبيل الوراء. لم أنسَ التحذير، ولكني تعمدتُ نسيان التحذير. لم أنسَ التحذير، ولكنّي أنكرت التحذير عمداً، ورأيت أن أتخلى عن درب البطولة وأرتدّ على عقبي بحثاً عن سبيل العودة. هالني الأسر، فصمّمت أن أتحرّر من الأسر، بالعودة إلى رحاب الأسر. لبست قناع الليل، واجتبت الظلمات شرقاً. ولكن اللعنة أدركتني ما أن اجتزت الفراغ الموازي للغدير جنوباً. عاودني الغثيان، ثم اشتدّ الدوار قبل أن تتلبسني حمّى أقسى من حمّى المرّة الأولى. عاندت وخطوت إلى الأمام، فزعزعتني رجّة عنيفة أسقطتني أرضاً. في الصباح وجدت العمّ يتربع بجواري، يدفن حياءه الخالد في اعتصار أصابعه إصبعاً إثر إصبع: دفع إليّ بوعاء اللبن ما أن فطن الى يقظتي، ولكني لم أمدّ إلى الوعاء يداً، برغم الجوع والخواء والظمأ والإعياء. قفزت رأساً إلى السؤال:

- هل يصدقني مولاي القول؟

لم يرفع إليّ عيناً. لم يختلس نحوي بصراً. بل تهيّأ لي أنّه لم ينتبه، لأنّه ازداد فوق يديه انحناء، وانكبّ فوق الأصابع حتى احتجب عنّي الوجه كلّه. لأن أهل الحياء سلالة لها أطوارها أيضاً، لأن أهل الحياء سلالة لا بدّ أن تفرّ بعيونها من العيون، لأنها لا تدري ماذا تفعل بعيونها في مواجهة العيون، فتحاول أن تخفيها عن العيون، كما يحيّرها أمر الأيدي، فتفرّ بالأيدي، في محاولة لإخفاء الأيدي.

لم أمهله طويلاً، فألحقت السؤال بسؤال أقسى:

- هل اشتراني مولاي من الأب حقّاً؟

لم ينتفض. لم يستنكر. لم يتوقّف عن عجن الأنامل بالأنامل. قال:

- وهل يُباع الحُرّ حتى يُشترى؟

- لا يدهشني ان يبيعني الأب أبداً، ولكن ما يدهشني أن يشتريني من يترجّى أن أصير له إبناً بديلاً عن أبناء لم ينجبهم من أرحام الإناث.

- ومتى كان إيداع الأبناء أمانةً في أعناق الأقرباء صفقة بيع أو شراء في عُرف الصحراء؟

- لو لم توشوش في أذني ألسنة السوء، لما ظننت بمولاي السوء.

- صدقتَ. لا توشوش ألسن الخشارة والسُّقّاط إلا بالسوء، وإلاّ بأيّ حق يسعى الناس بين الناس بالنمائم ليدينوا هذا ويبرئوا ذاك، إذا كان جلّهم لم يتربّوا إلاّ في أكناف الأقرباء؟ ألا تدري أنّ كل أبناء الصحراء قضوا قسطاً من حياتهم في أكناف الأخوال أو الأعمام ذكوراً كانوا أم إناث؟ ألا تدري أنّي لم أشبّ، ولم أدرك الخير من الشرّ إلاّ في بيت الخال؟ ألا تدري أن أباك، أيضاً، لم ينل عقلاً إلاّ في خباء عمّة أبيه العجوز؟ فبأيّ حق يسمّم الأوباش عقلك، ويظنّون بي الظنون، لمجرّد أني لم أنل من أرحام النساء

ولداً يسرق حياتي، ويصير في عنقي وهقاً؟

- يوجعني أن أسبّب لمولاي وجعاً، ولكنّي تذكرت وصيتك عن خطر العودة إلى الوراء، فصدّقت الأوباش.

- في شأن العودة ما زلت عند رأيي.

- لولا القرين لما التفتُّ إلى الوراء أبداً.

- أغلب نفسك، تقتل في نفسك القرين!

- هذا يخيفني.

- لا يتحرّر إلاّ من أمات نفسه.

- لا أخشى أن أميت نفسي، لا أعجز أن أميت نفسي، ولكني أعجز الناس إذا تعلّق الأمر بإماتة القرين في نفسي.

- ستحيا مسكوناً. يحزنني أن تحيا مسلوباً مسكوناً إلى الأبد.

- لا أريد أن أحيا إذا لم أحيا في القرين. لا أريد أن أحيا إذا لم أحيا بالقرين.

- إنسان بهذا العقل أهون له أن يذهب ويدفن نفسه في جوبة الضريح ليطعم تربان الأرض عظامه.

- سنفترق. أقسم أننا سنفترق يوماً.

- هل قلت سنفترق؟ ألا تدري أننا افترقنا منذ يوم انتزعناك من براثن التّيه مدسوساً في جلد غزال؟ ألا تدري أن من اختار سبيل التّيه بحثاً عن ضالّة لن يكتب له أن ينالها يوماً، هو مخلوق مفقود حتى لو دبّ بين الناس على قدمين؟

- سأنال الضّالّة. سترى أنني سأنال الضّالّة. لن يهدأ لي بال حتى أستردّ الضّالّة. إنني أستحضر الصحراء لتكون على الرهان شاهداً.

- لست في حاجة لاستحضار الصحراء، لأن الصحراء أعلم بأنّك ستخسر نفسك في اليوم الذي تسترجع فيه ضالّتك، فما فائدة أن تنال القرين إذا كنت ستفقد نفسك؟

- لن أخسر نفسي إذا نلت القرين، إذا نلت القرين فلن أخسر

أبداً.

- كاد هذا الرأي يصير شرّاً!

- هل تكلّم مولاي عن الشرور؟

- لا يشرّف الشرفاء أن يتبنّوا أبناء يهدهدون في الحاَجئ آراء الشرور.

- هل شرّ أن يفعل الإنسان بنفسه شرّاً؟

- الشرّ الذي يصيب به الإنسان نفسه يصيب الناس.

- ظننت أن الشرّ الوحيد الذي لا يُعَدّ شرّاً هو الشرّ الذي نصيب به أنفسنا.

- قد يكون الشرّ الذي تتحدّث عنه أهون الشرور حقّاً، ولكن الشرّ لا يفقد سجيّة الشرّ حتى لو كان هيّناً.

- ولكني لا أريد أن يختار لي الأغيار السبيل، ولا أن يشاركوني حياتي، لأنّي لم أختر للأغيار سبيلهم، ولم أشاركهم الحياة يوماً.

- هذا أسوأ ما في الأمر.

- أعلم.

- ما أشقاك!

- أعلم.

١٢

حدّثوني عن الأسر. وشوشوا في أذني فقالوا إن العمّ التجأ للسّحر ليوقعني في الأسر. تحدّثوا عن الأغلال الفظيعة التي يطوّق بها الدهاة أعناق الأشقياء والمعاندين والعشّاق ليمنعوهم من السير في دروب البُغْيَة. تحدّثوا فأسهبوا، ورووا السِّيَر فأكّدوا أن خلقاً كثيراً هلك، لأن الطلب في نفوسهم كان أقوى مما يحتمل البدن، والأصفاد التي تقيّد أبدانهم كانت أقوى مما تحتمل النفوس، فتأرجحوا بين الضدّين حتى قضوا النّحب؛ ولو كانت الأغلال محبوكة من حبال المسد، أو محكّمة من سلاسل الحديد، لعرف المريدون كيف يفكّون أنفسهم من أسرها، ولكن لا سبيل لعاشق، أو معاند، أو شقيّ للنّفاذ من أغلال محبوكة من ثنايا الطلسم الخفيّ. ثرثروا عن العلّة المميتة كثيراً، وانتهوا إلى القول بأنّي مغلول ككلّ المغلولين الذين عرفتهم القبائل، ولن أنجو من الغُلّ إلاّ إذا طلبت العون من جناب الساحر، فهرعت إلى

الساحر. كان حكيماً هزيلاً، طويل القامة، رمادي البشرة، مقوّس الظهر، ربما من فرط الطول، وربما من فرط الهزال، وربما استثقالاً لعبء النبوءة، وربما من من فرط ثقل الأعوام الكثيرة التي حملها على منكبيه. يندسّ وحيداً، في كوخ بائس محبوك من قشّ الأحراش وأعواد الأحطاب، ينتصب بعيداً عن مضارب القوم فوق رابية وحيدة جنوب المنتجع. ويُروى أنه لا يتّخذ بيوته إلاّ فوق الروابي والمرتفعات، لأنه لا يأمن غدر السيول، فإن حاججه هواة الجدل بالقول أن الأجيال لم تدرك سيولاً خرجت من ضفاف الوديان، توعدهم بأنين الشجن، ورفع سبّابته إلى رؤوس الجبال ليريهم الأطواق العميقة التي احتفرها غمر الدهور في أجرام الصلد، وترنّح ليذكّرهم بالطوفانات التي تحدّث عنها الناموس المفقود. فإن سُئل عن سرّ ولعه بالبيوت المنصوبة فوق أعواد الحطب، والمسقوفةَ بأكوام الهشيم بدل بيوت الأوبار أو الأشعار أو الأصواف أو الجلود، تزعزع بدنه الهزيل بأنّات الحنين (التي لم تعتد القبائل سماعها إلاّ من أفواه العشّاق والشعراء) ليجيبهم قائلاً أنه إذا كان لم يأمن أحوال الصحراء، فكيف يستطيع أن يأمن أحوال الزمان الذي لم يَعد يوماً أحداً بدوام النّعم، ورأت الأجيال كيف يهلك الأنعام بالجَدب، ويذهب اليوم بالنّعم التي جاء بها بالأمس؟ فإن جادله عشاق الحجج بالسؤال عن سبب اختياره أركان البُعد أوطاناً بدل ملاصقة النجوع والتنعّم بدفء الجوار، ترنّح وناح ليجيب بالقول أنه لا يستطيع أن يثق بالإنسان حتى يجاور الإنسان، لأنّه لم يجد في حياته كلّها سبباً واحداً يجعله يأمن الإنسان حتى لو كان أقرب الأقرباء، فكيف بالأجناب والأغراب؟ ويُقال أن القوم كثيراً ما غلبتهم روح الاستخفاف فتهكّموا على الحكيم، واتهموه بالمغالاة في الحرص على حياة مُنحت مرّة واحدة حقّاً، ولكنها لم تصر علْقاً نفيساً حتّى للبلهاء والأوباش والخشارات، لا لأن الاحتفاظ بهَا يشترط

إدخال الجمل في سمّ الإبرة، ولكن لأنهم جرّبوا أن الإنسان يفقدها لأتفه هفوة، فَكيف يليق بحكيم تشرّب النبوءة من حوالب الخُبْأة أن يكبّل حياته بغلواء التدبير تحوّطاً على هبة لا يجدي، للاحتفاظ بها، التدبير؟، فيتمايل الجرم النحيل وينوس كما تنوس الحلفاء مع هبّة الريح ليؤكّد للقوم أنه لم يحتكم للتدبير حرصاً على الهبة الزائلة، ولكنه سنّ شرائع اليقظة لدرء أخطار يمكن أن تقلب الأمر رأساً على عقب، فتتحوّل الهبة النبيلة بليّة مهلكة يستحسن التخلّص من وزرها، بدل الاستمتاع بثمارها.

استنجدت بالحكيم، وسررت له بأمري، وتوسّلته أن يفكّ قيدي وسأرعى له قطعانه كراء، أو أجلب له الأحطاب، أو أبتني له كوخه الذي بعثرت أعواده الرياح وجرّد العجاج شعفته من أكوام القشّ. تحدّثت عن صفقة أخدمه بموجبها عاماً كاملاً مقابل أن يعتقني. تبسّم الحكيم، وربت على منكبي، واستمهلني أيّاماً. عدت بعد أيام فأخذني من يدي، وانطلق بي في مَهْمَه العراء الممتدّ غرباً. انطلقنا في أصيل خضّب الآفاق بتلاوين النزيف. ساءلني في الطريق مستفهماً عن شئون لم أفهم لها معنى، واستفسر عن خفايا أضحكتني، واستوضح عن تفاصيل استفزّتني وأغاظتني، ثم سكت. دحرج الحجارة بنعله وسكت طويلاً. سكت فهبّ سكون الصحراء ليضجّ في أذني بضوضاء الألف لسان، بضوضاء تميت أصوات المدى، تخنق أصوات البادية، لتطلق سراح أصوات الخافية، فتتكلّم الصحراء فينا، بعد أن كنّا، بالكلام، نتكلّم في الصحراء. تموت الصحراء في الصحراء، وتستيقظ فينا صحراء أخرى، تستيقظ فينا صحراؤنا، لتتولّى الأمر نيابة عنّا. ولكن الصوت الخفيّ ما لبث أن توارى ما أن تلقّى الصفع بلسان الكاهن:

- إذا كبّل المريد مريداً بحبال المصير، صار المريد للمريد قَدَرا يستحيل معه الخلاص.

- لم أفهم الإيماء في لسان مولاي .

- لو لم يكبّل صاحب الأسر أسيره بالغلّ المضفور من رباط الأقدار لهان الأمر كثيراً .

سكت مرّة أخرى، فحاولت فكّ اللغز، ولكن الكاهن أنجدني بلغة الذين لم يؤتوا من علم الغموض إلاّ قليلاً :

- لو كان المريد يعلم أن القرين لك قَدَر، لما جرؤ على أن يضع في رقبته القيد الفظيع ليجعل من مصيره مصيرك، فلوى العصا في يد خفاء لم يلوِ العصا في يده مخلوق دون أن يدفع الهول ثمناً للعصيان .

- عن أيّ قدر يتحدّث مولاي؟ عن أيّ مصير يتحدّث مولاي؟

- قرينك ليس أخاً في الدّمّ، قرينك ليس توأماً في جوف الأُمّ، قرينك ليس خُلّك في الأهواء، قرينك قَدَرك، ولا فرق بينك وبين قدرك، ولو كان العمّ يعلم سرّك، لدفعك إلى قدرك دفعاً بدل ارتكاب خطيئة إبعادك عنه .

- خطيئة؟

- لا نرتكب الخطايا إلاّ لجهلنا بالخفايا .

- هل أسرني العمّ حقّاً طمعاً في أن أكون له إبناً لم ينله من بطون النساء؟

- لم ينل الأبناء من أرحام الإناث، ولن ينالك ابناً أنجبه له الأغيار، لأن العمّ لا يعلم أنه لن ينال الأبناء أبداً، لا من صلبه، ولا من صلب الأقرباء، ولا من صلب الغرباء .

- هل يتحدّث مولاي عن لعنة؟

- ما نراه بعيوننا الفانية لعنة ونقمة، قد تجري به الخافية نعمة، فمن منّا المكابر الذي يجازف فيجزم أن الأمر بليّة حتّى لو تعلّق الأمر بالحرمان من الذريّة؟

- ولكن مولاي نسى أن يحدّثني عن حيلة الخلاص .

- كيف يطيعني لساني لأحدّثك عن خلاص أراه مستحيلاً؟
- فليحترس مولاي أن يرمي بشقيّ إلى اليأس!
- أن أرمي بشقيّ إلى اليأس، أيسر من أن أرمي بشقيّ إلى التهلكة.
- ماذا أراد مولاي أن يقول؟
- أردت أن أقول إن الرباط إذا صار قدراً يطوّق الطرفين، فلا بد أن يتحوّل أحد الطرفين قرباناً لكي يتحقّق الخلاص.
- كنت قرباناً منذ أوّل يوم وجدت فيه نفسي أدبّ في هذه الصحراء، فلينعم مولاي بالاً لأن التلويح بالقربان لن يخيفني، ولن يثنيني!
- أخشى أن الطرف الذي صار في رقبتك قَدَراً، ولم يكن يوماً في رقبة قرينك قدراً، هو إلى حرم القربان أقرب.
- فليعنّي مولاي للإلتحاق بالقرين. فليعنّي مولاي لاسترداد قَدَري.
- أيرضيك إهلاك الإنسان في سبيل تحرير الإنسان؟
- إيرضي مولاي هلاك إنسان بريء في سبيل أن يحيا إنسان آثم؟
- كيف أستطيع أن أميت إنساناً دون أن أرتكب شرّاً عاهدت نفسي منذ أوّل يوم أن أفرّ من وجهه إلى أبعد صحراء؟
- أليس شرّاً، أيضاً، أن نمتنع عن انتشال إنسان يغرق أمام أعيننا في مستنقع الأوحال؟
- وكيف الحيلة إذا كان في إنقاذ الإنسان الغريق، غرق الإنسان المنقذ؟
- وما حيلتي، يا مولاي، إذا كنت لم أختر لنفسي قدري، في حين اختارني العمّ لحياته قدراً؟ هل يستوي الذين وُلدوا من بطون الأمّهات مطوّقين بأقدارهم، والذين اختاروا أقدارهم بعد أن بلغوا من العمر أرذله، وخيّبت لهم الصحراء الرجاء؟

- لا تلوّث يدي بجرم، وارحم شيخوخة عجوز بلغ من العمر أرذله.

- واجب الأحداث أن يرحموا شيخوخة العُجّز، ولكن واجب الشيوخ أن ينقذوا شباب الأحداث.

-يعجبني أن تحاججني بلسان الناموس، ولكن لساني لا يملك الاّ أن ينطق بوصيّة أخيرة: سلّم أمرك للأيام!

- أخشى أنّي سأهلك قبل أن تأتي الأيام بالخلاص.

- لا تخلف الأزمان وعداً، ولا تتأخّر الأيام بخلاص قدّره الخفاء.

- ها هو مولاي يميت من حيث ظنّ أنه يحيي.

سكت. سكت فسمعته يلهث. استحال لهاثه، في سكون الخلوة، صخباً بلبل لحون السكون، فأعدت طمعاً في أن يعيده الجدل إلى رحاب الجدل، علّ الجدل يعينني عليه:

- ها هو مولاي يميت منْ حيث ظنّ أنّه يحيي.

ولكن اللّسان لم يُعنّيَ، فانقلبت العبارة مرثيّة، وكان عليّ أن أسلّم أمري للأيام طويلاً قبل أن يقبل الداهية العابر الذي حوّل المرثيّة تميمة.

١٣

قبل أن يعبر العابر، ويقبل على ربوع القبيلة الداهية، جرت المياه في الوديان مراراً، ورحلت من أخبية القبيلة أقواماً لتهجع في الأضرحة بجوار الأسلاف، وعلت صرخات الاستهلال في الفساطيط الأخرى، وحلّت في البيوت البدائل التي اعتادت الصحراء أن تتسلّل بها خفية لتدسّها في بطون الأخبية من الكفاء، لتعوّض الخسارة. في أثنائها حاولت الإفلات كثيراً، وكبّلتني المحاولات بأسقام فظيعة، وتنقّلت مع العمّ في المراعي المجاورة مراراً، فجنينا الكمأ، واصطدنا الغزلان، وأطعمني بيديه خبزاً شهياً، في تلك المواسم التي تجود فيها سماوات الصحراء بالأمطار، وتنتعش المراتع، وتتوالد الأنعام، وتتكاثر الطرائد، فتنقطع الصحراء من دنيا الصحراء، وتحلّ في أرضها السهول المفروشة بسجّاد الفتنة والخضرة الموسّمة بألوان البهجة التي تتنوّع بعدد أجناس الزهور، فتتسامح حتى السفوح الجبليّة القاسية،

وتتسلّقها الأعشاب من كل حيد، وتكسو أخضابها صفوف نبات سخيّ متوّج بأصناف الأزهار حتى يكاد يقتحم فيها الشعاف العليا، فأهيم لأقتات العشب، وأعتلي السفوح لأعود من الأفاحيص ببيض الطير، وأتسكّع في الخُبب المفروشة بالوعوثة والجنبة والقصيص لأقتلع الجبأة والفقعة والكمأة، وأنزل السهول لأصطاد في أحراش القيصوم والجنبة الأرانب وبُهم الغزلان حتى يحسن بي العمّ الظنون، وأرى في عينيه يقينه بشفائي، لأني، برغم الغصّة، سامرته في الليالي، وسابقته في المراعي، وراهنته من باب اللّهو، ولم أبخل بالثناء على لذّة خبز أتقنت صنعه يداه، فتنبّأ لي المسكين بالبرء من داء احتلت عليه، فخبأته إلى حين، كما تخبئ نار الموقد جمرها تحت أكوام الرماد، فتجاهلت العلّة، وتعمّدت السّهو والغفلة واللامبالاة، وحاولت أن أسلّم أمري لمشيئة الأيام إعلاء لشأن وصايا الكاهن الحكيم، ولم أفطن لنفسي إلاّ في يوم فاتحني فيه بحلول ميعاد الرجولة، والاختباء وراء اللثام. استهلّ الملحمة بأشعار المديح، وتغنّى باللحون في يوم ازلأمّ فيه الضّحى، وتسكّعنا لالتقاط الكمأ في الخبب المغمورة بتربان الوعوثة في أعالي الوديان الشماليّة؛ يدب منحنياً إلى الأمام، متمهّلاً، مستنفراً، مزموماً، مشدوداً إلى الأسافل، ينكبّ حيناً حتى يلامس لثامه الأرض ونباتات القصيص، يهوي، ثم يهوي حتى يكاد يلثم الجوبة اللميسة، يخطو إلى الأمام في وضع الإنكفاء، يحدّق، يغمض عينيه، يفتحهما، يفركهما ليشحذهما استجداء لحدّة البصر الذي أتلفه الزمان، يتتبّع الأثر، يجدّ وراء الطريدة، يهب نفسه للغاية، يفني نفسه في العلامة، في الإيماء، في التشقّق الخفيّ الذي يقتلع الطين ليجد إلى الضوء سبيلاً، ينفذ من المجهول قُلاعاً مستديراً، غامضاً، ترتسم أضلاع الطين فوقه وسماً غامضاً، يكشف، في فرجة من هذا الجانب، أو من ذاك، طرفاً من السّر ناصعاً، أو أشهباً، أو كئيباً معتماً،

يتجسّس ليرتوي من مرأى السماء خفْية، ولكنه يتمنّع، ويستخفي، وقد يتراجع عند هبوب ريح تَسدّ ثغرات القُلاع، أو يتستّر بالعتمة، أو يستجير بنبتة أو عليقة أو جنبة، فيغلب المريد، ولا يهتدي إلى أوطانه العشّاق إلاّ بعد استبسال مستميت. ولكن المريد لا يستسلم، المريد يسعى بتلهّف العاشق فينسى نفسه، ما أن ينسى هويّة الجرم المعشوق، ما أن تتقشّع في الرؤيا ظلال الكمأة في بطن الأرض، وتستعير الثمرة الأرضية سجيّة الفاكهة السماوية التي تشفي من داء المنافي، وتقطع تنّين التيّه، وتصير لداء النسيان ترياقاً خالداً يستردّ به التائه الأبدي وطنه الضائع، فينضمّ العمّ، أيضاً، للقافلة، ويسير في الرُّبّة ربيئة استطلاع، تسابق فتستبق الجميع إلى البرزخ. ولكن العمّ، في ذلك اليوم، خالف ناموس الكنز، فدبّ هنا، ودبّ هناك، ينحني ليفتّش، بل يبتدئ الحفر، يشرع في استخراج اللقية، ولكنه ينتصب قبل أن يكتمل ميلاد الجنين بين يديه، لأنه تبلبل بالمواويل، وأفسدت عليه ملحمة اللثام صلاة الانقطاع إلى المعشوق، فيترنّم زمناً، ويهرع إليّ ليسمعني لحناً، أو يقرأ لي أشعاراً استلهمها للتوّ ويخشى أن تخونه الذاكرة فيختلسها منه النسيان الذي اختلس منه كل شيء، ثم يعود ليتلهّى بالبحث دون أن يتوقّف عن الغناء. يغنّي بصوت شجيّ، يغني بروح الحنين الموجع الذي لا يتقن لحونه غير فحول الشعراء، ومشاهير أهل العشق الذي توارثت الأجيال سيرهم فخلّدها الناموس. يغنّي ويتسكّع حولي، يقتفي أثري، ولا يستسلم لإغواء المسارب التي تتراءى بعيداً مكسوّة بالقصيص، واعدة بثمار السّحر، لأنها اعتادت أن تستدرج المريدين بهذه الحيلة منذ الأزل، فساقت عشاقاً كثيرين إلى تيه لم يعودوا منه أبداً. حام، بالأشعار، حول حرم المجهول، وكال مديحاً للخفاء الذي سنّ شرع تنكّر ليصير لإبن السبيل حيلة لإخفاء النوايا، حيلة تجيره من شرور تلك النوايا التي تدفعه للفتك بالأغيار، وتغذي فيه شرهاً

غامضاً للإنتقام من ذوي القربى، ولو إلى حين، فلم يلتفّ قناع يوماً على رأس عابر ما لم يكن الاستحياء من النوايا سرّاً. وقد أدركت أجيال الأوّلين قبح ما يخفيه الإنسان ضد أخيه الإنسان، فأوصت على الإحسان لذوي القربى، لأن الدُرْبة برهنت أن الأقربين أوّل من يتهدّدهم الخطر، فطوّقت رأس المكابر بلفافات الأقنعة لا لتحرير العابر من أسر الحياء الكاذب، ولكن كفاحاً للوصول الى عرين التنين الذي يخفيه كل مكابر، بعيداً، في رأسه؛ وإحكام اللفائف حول الجمجمة ما هو إلاّ محاولة لإحكام الأغلال حول عنق المارد الكريه وحشره في القمقم. وفي يوم آخر أجلسني في خلوة، وأشعل في الأرة ناراً، وبدأ يعجن في الوعاء دقيقاً ليصنع خبزاً، قبل أن يحدّثني عن سرّ اللثام بلسان آخر. قال إننا نأتي إلى الصحراء فتعترض الأنثى مسيرتنا، وتستولي علينا في منتصف الطريق. نتحرّر من سلطان الأنثى، في الجولة الأولى، بالميلاد من البطون، ولكن الأنثى تستردّنا بأربطة القماط. نتحرّر من سلطان الأنثى، في الجولة الثانية، بالفرار إلى اللثام، ولكن الأنثى تلاحقنا لتستعيدنا بالقران. نخرج من مجاهل البطون بأجساد عارية فتهدهدنا الأنثى وتغوينا بالبقاء حتى تنتهي من ابتداع كساء نستتر به عريّنا، فإذا ترعرعنا وقرّرنا الإعتماد على أنفسنا، هرعت إلينا الانثى لتذكّرنا بعريّ رؤوسنا، وتخبرنا بأن الأسر قدر الرجل ما ظلّ موسوماً بالعريّ، ما انكشف فيه الجسد، ما تراءى في جسده عضو من أعضاء الجسد، لأن العراء لعنة لا تليق بالرجل إذا كان يريد أن يتمتّع بلقب الرجل؛ لأنه بالعريّ لن يكون سوى طفل حتى لو كبر، حتى لو شبّ، حتى لو بلغ من العمر عتيّاً. وقدر الأطفال صدور الإناث، لا صدر العراء. بهذه الحيلة تستدرج الأنثى الرجل، لأنها لا تريد أن تكشف له عن سرّها، عن نيّتها، عن مكيدتها، فتنبئه بالحقيقة قائلة أنها لم تبتدع الأشراك للإيقاع بالأبله إلاّ غيرة من غريمتها

الأبديّة الصحراء، فتوسوس في أذنه معلنة أن العريّ عار لتسفّه عريّ العراء، عراء الصحراء التي تتوثّب لتخطفه منها، لتستولي عليه من بين يديها، لأن الصحراء تعد الرجل بالحريّة حتى لو كانت حريّة مميتة، والأنثى تستبقي الرجل، وتشدّه إلى صدرها بسلسلة طولها سبعون ذراعاً ملوّحة بإغواء أمان مميت أيضاً، لأن أمان الأنثى لم يكن يوماً سوى تسمية أخرى لغول إسمه العبودية، فيتزعزع المسكين بسرّ العداء بين الأنثى وغريمتها الصحراء، ويتأرجح بين البرزخين، فيهرع إليه التّيه ليصير له قدراً جديداً، لأن التّيه لعنة لا بد أن تطوّق كل عنق تذبذب بين الضدّين وأعيته الحيلة في أن يجد لنفسه مستقراً. يصير التّيه للعابر وطناً لأن الشقيّ لا يحتمل عبوديّة مميتة فيفرّ إلى شطآن العراء الخالد، تعجزه الحرّية المميتة على ضفاف العراء الخالد فيرتدّ إلى أركان العبودية الأبديّة، يفلت الرجل باللثام مصمّماً أن يفرّ من حذر الأنثى إلى الأبد، مصمّماً أن يتحرّر من استعباد صدر الأنثى إلى الأبد، مصمّماً أن يقتحم الحرم الصحراوي القاسي، يخرج من ستور الخدور، ويدخل ثنايا اللثام ليبدأ أسفاراً أخرى، أسفاراً موجعة، ولكنها مغرية، يسلّ نفسه من إغواء الدعة ليقع في فخاخ إغواء الشقوة، ولكنه لا يتراجع لأن الأسفار قدره، لأن العابر لا يسمّى عابراً إذا منعه الجبن من الإرتماء في أحضان الأسفار. ولكن الأنثى لا تستسلم بسهولة. الأنثى لا تيأس بسهولة. الأنثى لا تُهزم بسهولة. بل الأصح أن الأنثى لا تستسلم أبداً، ولا تيأس أبداً، ولا تُهزم أبداً. الأنثى لم تستعر من المجهول خصال الحيّة إلاّ لأنها لا تستسلم، ولا تيأس، ولا تهزم، ولا تموت. بلى، بلى. لقد ناح العمّ في عشيّ ذلك اليوم بأنين الشجن وكرّر مراراً أن الأنثى كالحيّة، لا تموت ولا تخسر عراكاً، بل لا تخسر عراكاً لأنها لا تموت، بل سرّ خلودها في قدرتها على كسب الرهان. هذا المخلوق المهول لا يلبث أن ينطلق في طلب التائه ليزرع سبيله

بالأشراك. يحيي في الأبله حيواناً آخر، يوقظ في العابر مارداً آخر ينام إلى جوار تلك النوايا التي يستحي أن يكشفها حتى لنفسه، ينطلق المارد من قمقمه الفظيع فتتملّك الجسد الشهوة، فيقفل الشقي من فوره راجعاً. يرتدّ العابر على عقبيه مبلبلاً، ليركع عند قدمي الفتنة باكياً، فتهوّن عليه الأنثى البلاء، لأنها توهمه أنه لم يخسر الرهان ما دام قد عاد على عقبيه غازياً. تلتجئ الداهية إلى المكر لترضي في الأبله غروراً كاذباً، فتقلب في عينيه الهزيمة غلبةً، وتقول له إن الاستيلاء على الأنثى ليلة القران فوز حتى لو صار فقدان الحرية له ثمناً.

١٤

بخّرتني العجائز بأجناس الأعشاب الجافّة، ونثرن في وجهي مياه المراهم الخفيّة، والجلجن، فوق رأسي، بتمائم لم يعدن، أنفسهنّ، يدركن لها معنى، لأن القبائل توارثتها عن الأسلاف الأوّلين مخبوءة في مزْوَد لسان باد فيه المعنى يوم بادت الأجيال التي دسّت فيه المعنَى. خارج الخباء توجّع وتر الحنين بلحن الشجن، وهوت أيدي الصبايا على الجلود المشدودة فوق أقعاب الخشبان، فضجّت الطبول بأنساق تحفر للأغاني الدروب، ففاض في الجآجئ الوجع، واندفع إلى الدروب أشعاراً فاجعة.

أقبلت عليّ داهية أبادها الزمان، وأكلت الأيام لحمها كلّه، ولم يبق منها سوى هيكل العظام الموسّم بالعروق. الداهية نفسها التي تولّت أمري يوماً، وحرّرتني من المسوخ في زمان أشرفت فيه على ربع القبيلة محشوراً في جلد غزال. ركعت قدّامي، وألقت أمامي بلفافة مدسوسة في ثنايا جلدة كئيبة زبرت عليها رموز

الأبجدية، وعلامات الربّة «تانيت». غزت أنفي رائحة مريبة. رائحة الإهاب الذي تنقّل بين الأيدي طويلاً قبل أن يُدبغ ويتحوّل جلداً. رائحة الجلد الذي تنقّل بين أيد أخرى، طويلاً، أيضاً، قبل أن تُحفر عليه السيماء، ويدمغ بالرّموز، لينقلب رقية سحريّة. أصابتني الرائحة بدوار، فأشحت بوجهي جانباً، فضبطت الداهية تبرّمي. قالت بخشونة الكهنة الذين يقدّسون شعائر الناموس، ولا يكترثون عندما يتعلّق الأمر بالمراسم بين أبناء العشائر:

– لماذا تتأفّف يا شقي؟ ألا تعلم أن أسلافك لم يتخفّوا يوماً إلاّ بمثل هذه الجلود؟ أم أنّك تظن أن اللثام المقدّس لم يدخل الصحراء إلاّ في اليوم الذي دخل فيه الكتّان الصحراء؟

مدّت أناملها الهزيلة وفكّت رباط اللفافة. أخرجت من الجلد لفافة أخرى. أخرجت كوماً من القماش الأزرق. أمسكت لفافة الكتّان باليمنى، ووضعت اليسرى فوق رأسي. بدأت تهمهم بالتمائم، يعلو الصوت ويبتعد، تتضح الألفاظ المجهولة وتغيب، أسمع عبارات كاملة، فلا أفهم من اللغة لفظاً واحداً، أصيخ السمع فألتقط الإيقاع، وأقتنص القافية، فأعلم أن الدهاة الأوّلين استعانوا بالأشعار، أيضاً، لإعلاء شأن تمائمهم السحريّة، وربما فشلوا في تحصينها من غول الزمان لو لم يلتجئوا إلى هذه الحيلة الصغيرة. انتهت الداهية من تلاوة أشعارها الخفيّة، فلعلع المكان بزغاريد عاتية. في الخارج اشتدّ قرع الطبول، وحمت الأغاني في ألسنة الشاعرات. كبّلت العجوز رأسي بيديها الاثنتين، ووشوشت في أذني كما توشوش الأمّهات في أذن الوليد بالإسم:

– تخرج، أيها الشقيّ، من الخدر اليوم ضائعاً، وتعود إلى الخدر غداً غازيا.

تذكرت وصايا العمّ فاكتأبت. تجسّست الداهية على قلبي مرّة أخرى فقالت كأنّها تفنّد في قلبي الهواجس، وتجيب على

مخاوفي:

- الخدْر قدر العابر، وعدوّ الرجل الصحراء.

وضعَت طرف اللفافة فوق رأسي، وطوّقت جبيني أوّلاً، ثم شرعت تلفّ الكتّان بحذر، ومهل، وانتشاء. ارتفع من صدرها لحن شجيّ، تتناهبه ضوضاء الخدْر المجاور، أو أغاني الصبايا في الخارج، فيتبلبل ويبيد؛ ولكنَه يتمادى من جديد، فيعلو، ويُسمع، فأستسلم، فيذهب بي بعيداً، بعيداً. سكتت لتوصيني همساً:

- الخروج، يا صغيري الشقيّ، دائماً خطر، فاحترس أن تستمرئ الخروج!

عادت إلى اللحن فطفت الأبعاد مع اللّحن، انقطع اللّحن في صدرها فوجدت نفسي، أهوي. أوصت مرّة أخرى:

- ما نفع الرجل إذا لم يعد من الخروج إلى خدر الحسناء غازيا؟ ما نفع الرجل إذا لم يقبل على الخدور ليختطف من أركانها دميةً تصير له في وحشة الخلاء سلوى؟

غنّت. غنّت بصدرها فجاء الغناء خفيّاً، شجيّاً، موجعاً، على شاعرات القبائل، وفاتنات الصحراء أن يعشن دهوراً، ويعبرن أجيالاً، كي يتمكّنّ من ابتداع لحونه، لأن اللحن المجهول لم يجرِ للجنيّة على لسان أبداً، ولكنها روّضته بصدرها طوال الوقت، فجاء مبهماً، غامضاً، بعيداً، كأن الأجيال هي التي تغنّيه، كأن مغنيات الأسلاف بُعثن من رمم التربان ليستعدن الحياة في اللحن المجنون، أو ربما صبايا الجنّ هنّ من استيقظ في صدر سليلة الجان، فدمدم الجؤجؤ بالأغنية في حين خرس اللسان. فهل الخروج فاجع إلى هذا الحدّ؟ هل الخروج لعنة حتى يشيّع صاحبه بلحون الجنون والمجهول والفجيعة؟ أم أن الخروج لذيذ أيضاً لذّة اللحن الذي ينضح بالفجيعة؟

تبدّد الصوت، فألقت الكاهنة بالوصيّة في أذني:

- ويلٌ لمن خرج إلى الصحراء عابراً، ولم يعد إلى الخدور غازيا!

اقتحمت الخدر الحسناء في الحال. اقتحمت الحسناء الخلوة قبل أن تنتهي الداهية من تتويج الرأس بالقناع، لأنّ الحسناء قرّرت أن تستردّ الرجل من منتصف الطريق. لأن الغيرة غلبت في القلب الحسناء، فرأت أن تستولي على المعشوق قبل أن يضع قدمه على الطريق. لأن الحسناء أعلم الخلق بالهوى الذي يوسوس في صدور العشّاق. لأن الحسناء أعلم الخلق بأن الصحراء غريم أقوى لأنّها تلوّح لمريديها بوعود الواحة المفقودة، وتستدرج البلهاء بأكذوبة مميتة إسمها الحريّة، فتحرّرت الحسناء من حيائها الكاذب، لأنها قرّرت أن تعترض المسيرة قبل بدء المسير، فانتصبت في وجهي الصبيّة التي جاور فسطاطها فسطاط العمّ، وأغوتني بصدرها الشهيّ مراراً، وكشفت لي عن ساقيها كثيراً، وأومأت لي بعينيها النجلاوين الكحلاوين كلما وقع عليها بصري. انحنت فوق رأسي لتنضح في وجهي عطراً مستحضراً من أزهار الرتم، فلامس نهدها السّخيّ أنفي، فغزتني رائحة جبّت عطر الزهور الذي رمته في أنفي، وزعزعتني بذلك الإنتشاء الذي لا يشتعل في جسد الرجل إلاّ إذا اشتمّ رائحة الأنثى!

١٥

انطرحتُ بجوار الرتمة وانتظرتُ. انطرحتُ فتخلّلتني الذرّات، وتنفّستْ أرض القيعان في بدني أنفاس الإنعاش. دسستُ يدي في وعوثة التربان واستسلمت للذّة الغزوة. ركنت إلى الحضيض، فهوت السماء المرشوشة بأرتال النجوم فوق رأسي. وسْوَس العراء الأعلى بإيماء الأنجم، فهرع إليه العراء الأسفل بوسوسة الصمت. زفر الشمال بنَفَس شحيح، فاستنشقه العراء بنهم الملهوف، وارتجّت أشجار الأودية برجف محموم، لتغنّي له لحن الحنين، فانسلّ همج الأرض من الجحوَر، ودبّت الدواب من كل الأجناب، وهبّت لتسمع أغنية الإحتفاء بوأد الجلاّد، ولتتجسّس على الإلتحام. نفثت الرتمة عبيرها في وجهي، فأصابني الإنتشاء بخدر هزّني، واستفزّ في المجهول الرؤى، فأغمضتُ عينيّ لأروّض الهاجس، وأقمع الحواس لأمنع الرؤيا من الإفلات. طفت بعيداً، وسرحت وراء الأطياف أمداً،

ولم أفتح عينيّ إلاّ عندما غزا أنفي عبير من جنس آخر جَبَّ عبير الرّتم في الحال، كما جَبَّه مرّة في خدْر الإحتفاء باكتمال الرجولة. نهضت على مرفقيّ فوجدت الحسناء تقف فوق رأسي. خلف قامتها الماردة طغى قبس قمر يجاهد ليولد، فأغار على شطوط المشرق ببُهْرة شاحبة. قالت وهي تتشبّث بالوقفة:

- لَم أقبل في الظلمة لأنّي أهاب الجنّ، ولكن لأني لا أطيق الدخول في ليل لم يفضحه القمر.

غمرتني بعِطر جسدها مرّة أخرى، وتنازلت عن عليائها أخيراً، وركنت إلى جوار الرتمة قبالتي. أتمت أغنية مديحها لمعشوقها القمر:

- القمر دمية الشعراء لأنّه الشاهد الوحيد الذي يرتضيه العاشقان طرفاً في خلوة العشق.

- ولكنه أفسد قراناً آخر، وشتّت شمل عاشقين منذ قليل.

- عن أيّ عاشقين تتكلّم؟

- السماء والصحراء!

- لا يضيره أن يفسد خلوة السماء بالصحراء إذا كان سيجمع عشّاقاً كثيرين في الخلوة.

- ساءلت نفسي دائماً عن سرّ عشق أهل الصحراء للأقمار.

- الصحراء ليست صحراء بلا قمر، وأنثى الصحراء ليست أنثى في غياب القمر!

- لم أسمع رأياً في الأقمار كرأيك قبل اليوم.

- القمر حليف المرأة، وخصم الرجل.

- عن أيّ حلف تتحدّثين؟

- القمر للمرأة حليف، لأن القمر يفضح للمرأة سرّ الرجل.

- ماذا تقولين؟

- القمر يكشف للمرأة ما يجاهد الرجل في إخفائه باللثام.

- كأنّي أسمع لسان الكاهنة، لا لسان فتاة.

- الشموس تستر ما يريد الرجل أن يخفيه، والأقمار تكشف ما يريد الرجل أن يخفيه. لهذا السبب فإن الشموس للمرأة خصوم، والأقمار، للمرأة، حلفاء. اسأل من شئت إن كنت تشكّ فيما أقول.

- هل أنت شاعرة؟

- كل بنات الصحراء شاعرات. كلّ أبناء الصحراء شعراء. أراهن أنّك شاعر أيضاً برغم أنّك تنكر كما ينكر كلّ شعراء الصحراء قول الشّعر.

- لماذا يتلهّف أهل الصحراء لقول الشعر، ثم ينكرون قول الشّعر؟

- لأنهم جبناء!

- جبناء؟

- لا يتنكّر للمعشوق إلاّ عاشق جبان!

- هل جرّبت العشق؟

- أنثى الصحَراء عاشقة من أوّل يوم. أنثى الصحراء تولد من بطن الأمّ عاشقة.

- أدركت منذ أوّل يوم رأيتك فيه أنّك تخفين سرّاً.

- مَنْ منّا لا يخفي السرّ؟

- أردت أن تجيبيني على سؤال.

- لم أجئ إلاّ لأجيب على السؤال.

- الحقّ أن سؤالي يتعلّق بالمجيء. أردت أن أعلم ما الذي دفعك إلى المجيء.

- لأني أنثى!

- أنثى؟

- ماذا ستفعل الأنثى إذا لم تذهب إلى الرجل؟

- أردت أن أعرف لمَ اخترتني من بين الرجال.

- الفضول سجيّة المرأة، ولكنّه مصيدة للرجل.

– سمعت هذا من قبل.
– لا أخفي عليك: اخترتك جرياً وراء السرّ.
– السرّ؟
– الأنسب أن أقول أني اخترتك لأنك غريب.
– غريب؟
– الغرباء سلالة نبيلة، لأنها تحمل في أجنابها أسراراً.
– أيستهويك الأغراب إلى هذا الحدّ؟
– ما يستهوي المرأة هو السرّ الذي ينام في صدر الغريب لا الغريب.
– قال لي أحد الكهنة مرّة أن الرجل يستطيع أن يتعلّم من المرأة أكثر مما يتعلّم من الصحراء، وها أنت تبرهنين على صدق الوصيّة.
– ولكن سرّ أيضاً أن قبائل الأغراب يجهلون سرّ تفوّقهم، يجهلون سرّهم، ولو أدركوا السرّ لبطُل العجب، وانفسخ سرّهم.
– يا لك من جنيّة!
مالت نحوي فاجتاحتني بعبير الشهوة. انكفأتْ فوق رأسي فانهمرتْ جدائلها في وجهي، وغمرتني بالأنفاس. لفحتني بأنفاس سخيّة قبل أن يلامس أنفها أنفي، فانكفأت لأنطرح أرضاً من جديد. لاحقتني بأنفاسها المحمومة، وأزاحت بأنفها طرف اللثام الذي يستر فمي، فأدركتْ شفتيّ بشفتيها، ونهلتُ من رضاب لسانها بلساني، وطاردتني حتى أدركتني، فسحقتني بصدرها، ولامس نهدها المزموم شفتي، فزعزعتني رجفة جنونية أماتت ما تبقى من الحياء في قلبي، فتسللت بيدي إلى خفايا الثوب الفضفاض لأتحسّس الكَفَل الثريّ، فوجدته ليّناً، لميساً ككوم من خزّ، ينتفض، ويترعّش، ويتلهّف. أطلقت تنهيدة محمومة، واندفعت لترمي نفسها في أحضاني. تلوّت كالحيّة، وغمغمت بآهات النشوة، والوجع، والوجد المحموم.

١٦

لم أعلم يوماً، يا مولاي هَرُو، أن زلل الجسد، كزلل اللسان، هفوة صغيرة، نزوة عابرة، ولكنّها مميتة. لم أعلم أن استسلامي للإغواء سيجرّني إلى أغلال أشرّ من أغلال السّحر التي كبّلني بها العمّ مرّة. لم أعلم أن الأسحار وضعتني في الأسر مرّة واحدة، ولكن الزّلل صيّرني أسيراً مرّتين، ثلاثاً، مائة مرّة. جمعتنا المراعي كثيراً، واحتوتنا الأودية الجنوبية مراراً، وتوجّعتْ بالحمّى والشهوة بين يديّ في حرجات الرتم، وتجاسرت فاستدرجتني إلى خبائها أثناء غياب جدّتها العمياء، وحدّثتني عن عشيرتها فقالت أن الأب مات بين يديها عندما أغارت على نجوعهم قبيلة معادية وطعنه أحد الأشدّاء بالحربة، واغتنموا أمّها سبيّة، فتولّت الجدّة أمرها منذ ذلك اليوم. ثرثرت كثيراً عن قبائل الأتباع، التي انتمت إليها الأمّ، وروت أساطير مثيرة عن ولع نساء هذه القبائل بالرجال، لأن الأخلاف ورثوا عن أسلافهم الناموس الذي يقول

إن المرأة لم تُخلق إلاّ لترتمي في أحضان الرجل، إلاّ لترتمي في أحضان الرجال، إلاّ لترتمي في أحضان كلّ الرجال، لا لتتلذّذ بأحضان الرجال، ولكن لتقتطف من أبدانهم فاكهةً إسمها الأولاد. أسمعتني السيرة كثيراً، وحامت حول البُغْيَة طويلاً، ثم جازفت يوماً، وكشفت عن النوايا، فقالت أنها قرّرت أن تنال منّي ولداً تستردّ به الأب الضائع، لأن الآباء الذين لا ينتقم لمصرعهم الأبناء أو أبناء الأبناء، في ناموس العشيرة، آباء هلكوا حقّاً، وضاعوا إلى الأبد، لأن أرواحهم لن تجد السبيل الذي يعيدهم إلى الوراء، فانتفضتُ كالملدوغ، وانتصبت واقفاً. فزعت يومها لا لإحساسي بالتفاف الوهق حول عنقي، وطوق القمقم قد ازداد ضيقاً حول بدني، ولكني فقدت الصواب لأنّي أدركت أن استرداد الحسناء للأب بالقران، هو إضاعة للقرين، البداية الحقيقيّة للفراق الأبدي، بل الإقتران بالحسناء هو خيانة للقرين، خيانة مميتة، خيانة لم يكن في وسعي أن أحتملها لأني لا أملكها. خيانة ليست من حقّي اليوم، لأنّها لم تكن من حقّي يوماً. لقد احتملت فراقاً لم أختره، احتملت خياراً لم يكن لي حقّ في استبداله بخيار آخر فقررت أن أسلّي نفسي بالنسيان إلى حين. قرّرت أن أدفن همّي في اللّهو، فركنت إلى الحسناء. سمعت من أفواه الدهاة الأقوال التي تتحدّث عن الحسناء كقرين للخطر، ولكننا لا ندرك، عادة، بهاء الوصايا إلاّ عندما نقع بين فكّي الخطر. وكان بالإمكان إيجاد المفرّ، كان بالإمكان أن يهون الأمر كلّه لو كنت بالحسناء لا مباليا. ولكن الفجيعة أن السُّمّ اجتاز البدن، وتغلغل بعيداً، بعيداً، بعيداً. تغلغل فاستحوذ على القلب، والقلب بلبل العقل، فاكتشفت في نفسي البلادة برغم البلبلة التي أصابت العقل. فتّشت عن المخرج، فأدركت أن الإصابة بالدّاء أمر يسير، ولكن الشفاء من الدّاء، الخلاص من الوباء، دائماً، أعسر. هربت من أحضان الجنيّة يومها لأشكو

همّي إلى الخلاء. فررت من جُحْر الحيّة علّي أجد في الصحراء ترياقاً يشفيني من سمّ الحيّة، فلم تهرع لملاقاتي الصحراء بأجناس العزاء كعادتها، لأن ناموس الصحراء القسوة، لا العزاء، إذا أرادت للأبناء الخلاص. في صرامتها قرأت النبوءة، وعلمت، بعد فوات الأوان، أني ارتكبت جرماً لا سبيل للخروج منه. أحسست نحو نفسي بالشفقة لأوّل مرّة، ولكن هذه القشّة لم تحمل لي العزاء أيضاً، لأني تذكرت الوصيّة التي تحذّر من الإشفاق على النفس، وتوصي ملل العابرين باجتناب أشراكها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. نكصت على عقبي لأرتمي في أحضان الحسناء. توسّدت صدرها السخيّ (الذي كان لي يوماً أوّل شرك) وكشفت لها عن السرّ. قلت لها إني أعلم أن الرجل لا يصير رجلاً يوم تحكم الكاهنات حول رأسه رباط القناع، ولكن الرجل يصير رجلاً حقاً يوم يسلّم أمره للحسناء كي تهبه من صلبها رجلاً. قلت لها إن من حقّ الرجل الذي يملك أمره أن يسلّم للحسناء أمره، ولكنّي إنسان لا يملك أمره حتى يسلّم للحسناء أمره. لم أملك أمري بالأمس، لم أملك أمري يوماً سبق يوم الميلاد، ولا حقّ لي أن أدّعي امتلاك أمري اليوم لا وفاء لقريني المفقود، ولكن امتثالاً لقدر لا حيلة لي فيه، ولو لم يكن النذر بهذا الطغيان، لما استبدلته أبداً بفردوس صدرها السخيّ، أو رضاب ثغرها الشهيّ، أو دفء الكفل الثريّ. توسّلت غفرانها، ولكنّها لم تغفر. حاولت استعطافها، ولكنها لم تعطف. احتلت عليها كثيراً لتتفهّم، ولكنها لم تفهم. لم أكن أعلم يومها أنّها قرأت في اعترافي ضعفاً، والأنثى لا ترحم للرجل ضعفه، فخسرتُ الرهان من أوّل جولة. خسرتُ وفقدت الأمل فهمتُ على وجهي أزماناً. غبت في المراعي، وانقطعت في المغاور، واختبأت في بطون الأودية الجنوبية الأبعد، لا فراراً من الخلق، ولا هرباً من الفتنة، ولكن فراراً من نفسي، وبحثاً عن الخلوة التي أجمعت القبائل من قديم

على سلطانها في مداواة ضعاف النفوس الذين لم يجدوا الحيلة لمغالبة النفوس. فهل نصرتني الخلوة على النفس حقّاً؟ الحقّ أن أمري انتعش في البداية، ونداء الأبد انتصر زماناً، ولكن حداثة عهد الجرح أيقظ في النفس الشجون يوماً، ونداء العشق غلب حنين الأبد، والبلبلة تمادت يوماً، ففتّشت عن وسيلة للاحتيال على الوسواس فلم أجد غير الحجر. تناولت حجراً جارحاً، وتحرّرت من اللثام، وشدخت رأسي بالحجر طويلاً جدّاً. تحلّب من الجبين دم وفير، ولكن نزيف الدم لم يوقف نزيف القلب، فيئست.

يئست فألهمني اليأس البشارة.

قادتني بشارة اليأس إلى شطآن الغدير.

تخلّت عنّي الوساوس لأوّل مرّة، وخلا قلبي من البلبلة ما أن ولّيت ظهري للربوع، وقرّرت أن أسلّم أمري لمشيئة الغدير. عرفت سلاماً لم أعرفه، وذقت طعم ما يسمّيه أصحاب العزلة سكينة. رأيت السماء كأنّي أراها لأوّل مرّة، واكتشفت في الصحراء جمالاً غاب عنّي طوال الزمان الذي أهدرته في العراك مع الصحراء، وأدركت أن السعادة ليست واحة مفقودة كما يروّج الشعراء والعشاق وأهل الحنين. تلذّذت بصفاء السماء، وفتنني انكفاء القرص المسربل بلون الدّم، وأسرني السكون كما لم يأسرني يوماً، فركعت، وبكيت، وقبّلت تربان الأرض طلباً للغفران. لا أدري كم استغرقت صلاتي، ولكني أذكر أني أحسست ببدني هشّاً، خاوياً، خفيفاً كقبضة من الريش. لم أحسّ بفقدان الوزن في جسدي وحده، ولكني أحسست بالهدوء يستولي على البال أيضاً، فابتهجت بفرح طفوليّ لم أعرفه في طفولتي. ملأت عينيّ بتلاوين الغروب في قوس الأفق، وخطوت القهقرى حتى لامس قدمي أوحال الغدير. ولّيت آفاق الغروب ظهري مكرهاً، والتفتّ إلى رحاب الغمر. خطوت

خطوةً أخرى فأدركت القدم حافة اليمّ، وبدأت أخوض الطين المغمور بالبلل اللعوب. تكلّم الرضاب في قدمي بلغو مجهول، فأحيا في المجهول وتراً، فدمدم صدري بالأنشودة المستعارة من أوطان الأبدية. لجلجت بالأغنية المبهمة التي تلقيتها هبةً من أهل الخفاء يوم وقفت في وجه الشؤم لأوّل مرّة، ولوّحت مديتي في وجه امرأة الأب لأدافع عن القرين وعن نفسي. اليوم أيضاً ترنّمت باللحن المجهول ليسليني في رحلة الدفاع عن النفس، وعن القرين. اليوم، أيضاً، صاحبتني الأنشودة في سفري لإنقاذ نفسي، وإنقاذ القرين، فما أشبه ذلك اليوم، بذلك الأمس. وكان الصوت يعلو في صدري كلّما خطوت إلى الأمام، كلّما اجتاحتني المياه، كلّما غرقت قدمي في الأوحال السفلى، كلّما عرقلت كتل الطين تقدّم القدم، كلّما ابتعدت عن الشطّ، كلّما تخلّت عنّي الصحراء، واقتربت من فم الجرداب. بدأت أغرق فتحوّل اللحن في فمي موّالاً، بدأت أضع قدمي في سبيل آخر، فتنحّى الوزر، لأن الوزر الذي نتخلّى عنه لا بدّ أن يتخلّى عنّا، فتأجّج النشيد واستعار من مجهوله لساناً. لم يعد اللحن لحناً، ولكنه صار أغنيةً. لم أفهم للأغنية ألفاظاً، لأن ألفاظ الأغنية لم تكن ألفاظي. لم أفكّ طلسم الهبة، لأن قدر الانسان أن يعجز فكّ طلسم تلك الهبة التي تلقّاها كنزاً من يد الأبدية.

١٧

ولدتُ فولْد، بميلادي، الخصام. عدتُ من دنيا النسيان، فتلقّتني الذاكرة بوجع إسمه الحياة. استيقظت من غيبوبة، فاستيقظتْ في بدني سموم اليقظة. انكفأت وبدأت أتقيّأ فتمنّيت أن ألفظ الذاكرة، واليقظة، وشهوة الحياة بدل الأكدار المخلوطة بالأوحال والتربان وقمش الغدير. كنت على يقين أن ما يسمّم بدني بالأوجاع، ويحرق أعضائي بالحمّى ليس أكدار الغدير، ولكنّه أكدار من طينة أخرى لا تكمن في الجرم، ولكنها تترسّب بعيداً في قيعان أخرى. طافت الأمة الحولاء حول رأسي، واعتصر العمّ بطنّي بذراعيه ليعينني على التخلّص من بقايا الغمر، ولم يكن المسكين يدري أن علّتي ليست في الجوف، ولكنها في مكان أبعد من الجوف. تقيأت طويلاً دون أن أفلح في استخراج المزيد. فشلت في لفظ المزيد لأنّ ما أردت أن ألفظه لا وجود له في أمعائي الخاوية. وبرغم إدراكي للمحنة إلاّ أني لم أستطع أن أمنع

نفسي من التوقّف، فمضيت أتقيّأ، وأتقيّأ وأتقيّأ. سقتني الأمة شراباً ساخناً بملعقة العود فلفظت الشراب كلّه. أجبرتني على تجرّع حساء جار فاسترجعته مرفوقاً بأكدار كئيبة. سمعته يتفاءل ويبارك الرجيع قائلاً أن الاسترجاع دائماً علامة شفاء، وأكّد أن المسمّم، أيضاً، يسترجع عافيته إذا استطاع أن يسترجع ما في بطنه. ولولا الحياء الذي يلتفّ حول عنق كلّ مَنْ طوّقتْ كاهنات القبائل رأسه بالقناع لدفعتُ عنّي الأمة، وصرخت في وجه العمّ باليقين الذي يتململ في صدري، ويقف غصّة في حلقي. ولكن العمّ تكلّم كأنّه قرأ ما يجوس في البال، فقرّر أن يضع حدّاً للبلبلة، ويجفل الوسواس:

- لا تحتقر الخصام!

استفهمت إيماء فأوضح مطأطئاً:

- تعلّم ألاّ تحتقر الخصام، لأن المعنى، كلّ المعنى، في الخصام.

توجّعت دون أن أدري:

- أنا، يا مولاي، متعب.

- مبكّر، يا ولدي، أن تتحدّث عن التعب.

- كلمتُ مولاي يوماً عن سكون البال.

تزعزع كالمجذوب. تغنّى:

- السكون. السكون. السكون. مبكّر، أيضاً، أن تتكلّم عن السكون.

- أنا، يا مولاي، لا أريد شيئاً. أنا، يا مولاي، لا أعني شيئاً منذ ذلك اليوم الذي فقدت القرين. أنا شقيّ، يا مولاي، شقيّ، شقيّ، شقيّ. فهل في جعبة مولاي ترياق لداء الشقاء؟

ترنّح مرّة أخرى. تغنّى مرّة أخرى:

- عش، يا بني، وانسَ السكون. آن الأوان، يا بني، أن تستسلم. آن الأوان أن تحيا كما يجب أن تحيا.

– حاولت، يا مولاي، أن أحيا كما يحيا الأغيار، ولكن الحسناء سرقتني وذهبت بي بعيداً.

– الحسناء قَدَر الرجل!.

– لا أريد أن أذهب بعيداً، لا أريد أن أتغرّب. لا أريد تيهاً لأني لم أعرف يوماً إلاّ التّيه. لا أريد إلاّ أن أستردّ القرين. لا أريد، لا أريد، أنا، يا مولاي، لا أريد شيئاً. أنا، يا مولاي، لا أريد أن أريد...

– يجب أن تريد. لا بدّ أن تريد. الإنسان ليس إنساناً إذا لم يُرد شيئاً. الإنسان لا يحيا إن لم يُرد.

غلب الوجع الحياء، فأطلقت آهة يأس. مال نحوي، ولكنه انكفأ أرضاً ليتجنّب التحديق في وجهي. ردّد نفس الأغنية:

– هل جاريتني يوم قبلت أن نضع على رأسك العلامة؟

استفهمت إيماء، فأوضح:

– لا يصير الرجل رجلاً إلاّ إذا ارتضى أن يصير في يد الحسناء رهينة.

– وهل يرهن الإنسان نفسه مرّتين يا مولاي؟

– رهن يَجُبُّ رهناً، ورهن الحسناء أقوى لأنه يستطيع أن يجُبَّ ما قبله.

– هيهات...

– جرّب وسترى أن الحياة ليست قاسية إلى الحدّ الذي تراه.

– هيهات أن يستطعم اليائس من الدنيا طعام الدنيا!

– صدر الحسناء ترياق وجع إسمه الدنيا، لأن الحسناء، يا صغيري، هي الدنيا.

– أيريد مولاي أن يكبّلني بوهق جديد؟

– لا سعادة لأب إذا لم يرَ وليده يحيا.

– الماساواة بين الضدّ وضدّه امتياز اليأس.

– جرّب! لا يضيرك أن تجرّب أبداً.

سكتُّ. سكت أمداً. تململ في قلبي إلهام غامض، فتكلّمتُ بلسان لم يكن لساني.

- من عدم الحيلة لا يهمّه أن يجرّب. من عرف الأسوأ لا يأتيه التجريب بالأسوأ.

- هل توافقني؟

- الرأي رأي مولاي.

- مرحى! مرحى!

تمايل شرقاً وغرباً. فاض في مقلتيه ألق. أعاد بالصوت الملحون:

- مرحى! مرحى!

١٨

تسلّلت أنامل الصبايا إلى أكفئة الأخبية، وانتزعت من قيعان الخوابي جلداً كان بالأمس القريب إهاباً يتلبّسه زغب البهاء، فيصير الإهاب لجرم الفتنة لباساً آخر، وجرم الفتنة والغموض والحُسن يطوّق روحاً خفيّة يسمّيها الدهاة جاناً، ويسمّيها البلهاء غزالاً. احتملت الصبايا الجلد المسحور وذهبت به إلى أخبية أهل السّحر. وسمته الكاهنات بتمائم الأوّلين وبرموز السّحر، فشدّته أصابع الحسان بسيور الجلد فوق عُسّ أودعن فيه حبّات النوى بعدد أيّام الأسبوع وتركنه، في عراء ليلٍ اكتمل في سمائه القمر بدراً؛ غمرته الأهوية فتبدّد بلل سيوره بخاراً. اكتمل الطوق، واستقام العود، واستعار العُسّ فتنة الجرم المستدير. أسرَ جرم الغموض القبائل التي تسكن الخفاء، فاندفع إليه الأسلافَ والجنّ وسكّان الهواء ليتخذوه وطناً. في الصباح استعادته الصبايا، واحتضنّه في العشيّ وذهبن به إلى العراء الفسيح. تحلّقن حول

عُسّ العود الذي لم يعد عُساً ولا عوداً ولا جلداً. ضربن حصاراً حول الجرم المستدير الذي يضرب بدوره حول الحبّات السبع حصاراً. حول الحصارين ضرب الأفق الصحراويّ الصارم حصاراً ثالثاً، لأن كلّ دائرة، كلّ جرم مستدير، ينكمش حول نفسه ليخفي عن الأغيار سرّه: الطبل يستر الحبيبات السبع التي تستر في عددها سرّ الأيام السبعة، والأيام السبعة تخفي سرّ الأبديّة، لأن القران لا يكون قراناً إذا لم تذهب فيه القرينة إلى بيت القرين مصحوبة بالألحان المستعارة من حنجرة الأبدية. الفراغ الأبدي الذي يرتمي إلى كل الأركان يستدير أيضاً في المكان الذي يعترضه فيه الأفق، فتتحالف الآفاق، وتلتفّ لتبدع، بجرم الصحراء، حلقة كبرى تتستّر على سرّ المكان، على سرّ الأرض، وتمتدّ لتحتوي في حلقة النساء سرّ الأنام، وتستولي في غزوها على الدائرة الصغرى التي تحتضنها النساء، الدائرة التي تنكفئ لتحمي كنز الأبدية في الأيام السبعة، في قطع النوى السبع، في أرواح الأسلاف، في أبناء المملكة الخافية، فيصبح الكلّ ركناً في البنيان، وتلتئم الأجرام جميعها في سرّ واحد كبير لم يكن ليكتمل أبداً لو لم تصر له أنفاس الخلق، في حلقة الصبايا، صرخة استهلال، والغناء في أفواههنّ لساناً، وعملهنّ عهداً لقران.

تمتد الأنامل لتلامس حافة الجلد، فينبثق في الخلاء صوت الأبد، ويبثّ الجنّ في الصوت إيقاع الشجن، ويهرع الأسلاف ليلقنوا الأخلاف الوصايا، ويتنافس سكّان الهواء في شحن الهواء بأنغام الحنين المميت، فيتقاطر على العراء عشّاق الحنين والموت والأشعار والجنون لينوحوا، ويترنّحوا، ويغيبوا في ممالك الوجد. يقبل الفرسان أيضاً على مطاياهم المزمومة. تندفع إلى الساحة النجائب المزخرفة بأجناس الجلود المنمنمة باللهفة والبكارة التي تزبرها العاشقات على الجلود أشعاراً تبعث بها إلى العشّاق سرّاً لتكون لعشقهم تمائم وفاء. أمّا الفرسان أنفسهم فيلتفّون في أثواب

الزرقة والجلال والاحتفاء ليغيبوا عن الأنظار فلا تبدو من أجسامهم سوى عيونهم أو أكفّهم. يتربّع كلّ فارس على السرج المهيب بعبعاً مهيباً ليفزع، بهيبته، أهل الخفاء، وينال، بفنون التنكّر، إعجاب حسان القبيلة أوّلاً، قبل أن يأسر قلوب فاتنات الجنّ. يقف الفرسان بالمطايا في صفين متضادّين، متباعدين، متقابلين، تتوسّطه حلقة النساء، فلا ينطلق الفرسان من هذا الصّفّ إلاّ مثنى أو ثلاثاً أو رباعاً، فينطلق الأقران من فرسان الصفّ المقابل بالأعداد نفسها، بالمهابة نفسها، بالسرعة نفسها، بالإيقاع نفسه، بالغموض نفسه، ليلتقي الفوجان عند حلقة النساء، ولكنهما لا يلتقيان إلاّ ليتفرّقا، إلاّ ليتقاطعا، فيلتحق فوج الضدّ بصفّ الضدّ، ويصير النقيض قريناً للنقيض.

تتحرّك الجموع. تقبل على السّهل طوابير الخلق صبياناً ورجالاً وشيوخاً. يحتلّ الأكابر للفرجة رابية، أو أكمة، أو كُدْية، ويختار الفتية والشبان جانباً ليلتئموا في طابور.

تلتهب الأكفّ، وتنطلق الألسن، فتشتعل القلوب بالأوجاع والأشعار والأشجان، وتروي الصحراء، بالغناء والإيقاع واهتزازات الأجساد، سيرة الحنين.

روت الصحراء، في تلك العشيّة، سيرة الحنين أيضاً.

استمرّ الجنون النهار كلّه، وكاد يتواصل في مساء استنار بأضواء البدر، لو لم يبلغ بالفارس الملفوف بالغموض الشجن مداه، فوثب بالمطيّة خارج السياق، فتضعضع الإنسجام كلّه، واضطربت في الحناجر الأصوات، وبدأ الغناء يختنق، ويتراجع، ويزول، فأفلت فرسان آخرون، وفرّوا خلف قرينهم المجنون الذي وضع، بجنونه، حدّاً للجنون.

انتهت، في السّهل، حمّى الحنين، وبدأت في البيوت حمّى القران. نصبوا لي في العراء خباء وحيداً، وابتنوا في صدر الخباء عرشاً من تربان القيعان، وفرشوا العرش بأنطاع الحيوانات

ومفارش الأوبار والأصواف، وأحاطوا البنيان بأنصال السيوف وأسنّة الرماح خوفاً من أجناد الجنّ الذين يحومون حول الحرم في نيّة لاختطافي واستبدالي بقرين من ملّتهم. عند أعتاب عرشي تربّع قرين اختاره لي الأنداد ليكون لي في الحوار مع داهيات النساء سنداً وعوناً. استولى كوكب الفتنة على عرشه في السماء أيضاً، ومَنَّ على الخلاء الملفوف في الصمت بفيضه السخيّ، فأقبلت التلّة، في البُعد، كتلة من السواد، يتمايلن في مشيهنّ، يتمهّلن، يتوقفن، يجلسن، ينهضن، يَحُمْنَ حول القرينة، ويغبن في ترديد التمائم الأولى التي ورثنها محشورة في مواويل موجعة كأنّها النواح. يقتربن فيقترب، باقترابهنّ، الترتيل. أدركن الخباء، أخيراً، وطُفْنَ حول البيت مرّة، مرّتين، ثلاثاً. فرغن من الطواف فتكأكأن حول كنزهنّ في المدخل. بدأت مباراة الأحاجي. تكلّمت أذربهنّ لساناً، وأكثرهنّ احتيالاً:

– نزلنا أوطاناً وبنا من الأسفار ظمأ.

فأجابها الدّاهية الذي تربّع بجوار العرش:

– نزلتنّ أوطاناً لا تبخل آبارها بالمياه، فهنيئاً لكنّ بالمياه!

– بلغنا شطآن المياه، ولكنّنا لم نجد حول شطآن المياه ثماراً تسدّ رمق الجوعان.

– حول شطآن مياهنا تتكدّس ثمار تشبع نهم الجوعان، فهنيئاً لكنّ بثمار الشطآن!

– أقبلنا على أصحاب الشطآن بكنز، ولكننا لا نستطيع أن نفكّ طلسم الكنز، ما لم نتلقَّ العطيّة من صاحب الشطآن.

– انتظر صاحب الشطآن كنزه طويلاً، وأعدّ، لتحرير الكنز، العطيّة منذ أبعد الأزمان!

مدّت الداهية كلتا يديها، فأخرج لها داهية العرش من جراب الجلد حليّاً وأنعالاً وألبسة، ووضعها بين يدي الكاهنة. استلمت الكاهنة العطايا بيد، ووضعت يد القرينة في يد قرين القرين.

انسلّت الكوكبة من المدخل انسلال الأرواح، فانتظر الداهية حتى غيّبهن المدى، فوضع يد القرينة في يدي، وانسلّ، أيضاً، من الخباء، فتبدّد في الخلاء كما تبدّدت قبله لمّة الجنيّات.

تشبَّثت بمعصمها طويلاً. كانت تركع في حضيض العرش، تستند بجسدها على سفح النّصب الترابي الذي أتربّع في قمّته، تلوذ بالصمت بعناد طفوليّ، فلا أسمع، في السكون الليلي الجليل، إلاّ هسيس أنفاسها، كأنّنا نبدأ مع الخلاء مباراة خفيّة نخاتل فيها الصحراء لنتجسّس على سرّ الصحراء، في سكون الصحراء، وتخاتلنا الصحراء، فتتجسّس علينا لتسمع سرّنا، كأنّ الصحراء، بصمتها المريب، تريد أن تبلغنا الرسالة، وتخبرنا بلهفتها على إتمام القران، لأنّ قراننا، لأن التئام الرجل والأنثى، جزء صغير من القران الكبير الذي تتكتّم عليه، وترفض أن تبوح لنا بسرّه.

هالني السكون المشبوه، فقرّرت أن أعكّر صفو الغدير برمية حجر، علّني أمحو الأثر:

- تهيّأ لي أنّهم لن يدركوك مبكّراً.

شدّت اللحاف، بيدها الَطليقة، حول جدائلها، فغمرتني بعطر الأزاهير وأخلاط العشب. وشوشت همساً:

- مهما فررت فلن أفرّ بعيداً. مهما فررت فلن أفرّ من قدري.

- قدرك؟

- ألا تقول العجائز إن الفرار من القدر جنون؟

- ظننت أن الصحراء أوسع مما نظن، وإذا سلّم إبن الصحراء نفسه لها بنيّة حسنة، فإنها تستطيع أن تمضي به إلى الأبد.

- لن يكلّفني جهداً كبيراً أن أدرك في قولك ظلّ استخفاف.

- في أيّ ركن أرتيأت الاستخفاف؟

- الرجال من فرار المرَأة ليلة القران دائماً في شكّ.

- هل سوء ظنّ بالمرأة أن يندهش الرجال لامرأة تحتال

للحصول على الرجل، حتّى إذا أفلحت في الإيقاع به، فرّت من وجهه ليلة القران؟

- أليس هذا اتّهاماً صريحاً للمرأة بالافتعال؟

- أليس غرابة أطوار أن نفرّ مما نريد؟

- فلتعلم أن أنثى الصحراء لا تكون صادقة إلاّ مرّة واحدة: ليلة القران التي تستنجد فيها بالصحراء فراراً من الرجل. فهل تظنّ أنها تهرب خوفاً من السبي وحده؟

- أعترف أني ظننت أنها تفرّ من السبي، لأن الأعراف التي ورثناها عن الشعراء أجمعت أن الرجل الذي نزل رحاب القبيلة ليختطف ليلة القران حسناء القبيلة لن يسمّى إلاّ غازياً.

- هذه الحجّة خطيئة الكثيرين الذين لا يرون إلاّ ما رأيت، ولا يدري هؤلاء أنّهم يستهينون بالمرأة كثيراً إذْ يعتقدون أنّها لا تستطيع أن تقلب هزيمتها غلبةً.

- بلى. بلى. العقلاء يؤكدون أن الرجل يغزو ليأتي إلى بيته بالمرأة سبيّة، فيجد نفسه سبيّاً بيد المرأة. نحن نختطف من بيوت الأغيار السبايا، لنصير في أيدي السبايا سبايا.

- يجد الرجل نفسه في يد سبيّته سبيّاً، لأن الرجل طفل يلهو بالدمية، ولا يعلم أن صاحب الدمية كثيراً ما تستغفله الدمية، فينقلب دميةً في يد الدمية.

- أعترف أن هذه السيرة غابت عنّي. أعترف أن أمثولتك أجمل ما سمعت!

- ولكن لفرار المرأة علّة أخرى أبعد من سيرة السّبي.

- حدثيني عن العلّة!

- صدّق أو لا تصدّق، ولكن المرأة لا تفرّ إلاّ مما تريد، لأنها لا تريد أن تفقد ما تريد.

- لا أفهم...

- المرأة أكثر حكمة من أدهى رجل، لأنّها تتجنّب، بالفرار ممن

تحبّ، الفوز بمن تحبّ.

- لماذا نحبّ إذا كنّا نتجنّب نيل ما نحبّ؟

- لأن في نيل ما نحبّ يكمن سرّ هلاك ما نحبّ.

- عجباً!

- لهذه العلّة رأى الأجداد في العشق خطراً.

- الكلّ يؤمن بخطورة العشق.

- الكلّ يؤمن، ولكن القلّة هي التي تعلم، لأن خطر العشق يحيق بالمعشوق لا العاشق، وورثنا سيراً كثيرة عن عشاق القبائل الذين لا يركنون إلى التسليم إلاّ إذا أماتوا المعشوق، لأنّهم على يقين أن لا امتلاك لمعشوق، لا امتلاك لامرأة حقاً إلاّ في الهلاك.

- أتريدين القول أن القرينة عاشقة تفرّ من المعشوق ليلة نيل المعشوق لأنها لا تريد أن تموت؟

- صدقت. ولكن الصحراء حليف الرجل لأنّها خلاء لا يفضي إلاّ الخلاء، فلا تملك المرأة إلاّ أن ترتد إلى الوراء، لأن الوراء، لأن الخباء، لأن الرجل الذي ينتظرها في الخباء، قدرها.

- بلى. الصحراء حليف الرجل لا المرأة، لأن المرأة، كما يقال، لا تغار على الرجل كما تغار عليه من الصحراء.

- تغار المرأة من الصحراء لأن الصحراء هي الأنثى الوحيدة التي تستطيع أن تسرقه منها بالإغواء الكريه المسمّى في لسان القوم: الخلوة!

- أليست الخلوة للصحراء حُسْناً؟

- ولكن المرأة لا تستسلم بيسر، لأنّها تستعيد الرجل من غريمتها بالذريّة.

- إذا كان ما يسكن كل مخلوق جنّ واحد، فلا شكّ أن في قلب المرأة تسكن قبيلة من الجنّ. فكيف تستطيع الصحراء بحُسْن النوايا أن تحقّق الغلبة في العراك مع مخلوقات مسكونة بقبائل الجان؟

- لو لم تحقّق الصحراء، في العراك، غلبة لما التجأت المرأة للولد كحيلة من لم يعد يملك الحيلة.

- يدهشني أن تعدم المسكونة حيلة.

- لو لم تستخفّ بحيلتها الأخيرة لما جرؤت على القول أن الولد حيلة من عدم الحيلة.

- هيهات أن أجرؤ على الاستخفاف بدهاء الجنيّة!

- يفلت الرجل من المرأة بخلوة الصحراء، ولكن المرأة تستعيده بالولد، لتنسج له من الولد وهقاً يصير في رقبته قدراً.

- مرحى! مرحى!

- تعترض الصحراء أنثى الصحراء، لتردّها إلى أحضان قرين أمسى لها، في ليلة القران، قدراً أبديّاً، وهقاً أبديّاً، فلا تتحرّر إلاّ يوم تبدع له من جسده وهقاً يصير له قدراً أبديّاً.

- مرحى! مرحى!

- تموت المرأة بالعشق لتحيا بوهق إسمه الولد!

- ولكن ماذا ستفعل الجنيّة بنفسها لو حرمها القرين من وهق الولد؟

- ساعتها تُهزم المرأة لأوّل مرّة. تُهزم لأنّها، بالحرمان من الذريّة، تموت مرّتين!

- ظننت أن المرأة، كالحيّة، لا تموت أبداً.

- ها أنا أبوح لك بسرّ لن تسمعه من فم امرأة: المرأة مخلوق لا يُهزم حقّاً، المرأة جنّية لا تموت حقاً إلاّ ببليّة واحدة: الحرمان من الولد!

سكتت أخيراً. سكتت فسمعت أنفاسها تتلاحق في السكون الصحراويّ الجليل. استرخت قبضتي على معصمها. أفلتّ قبضتي عن معصمها. خالفت الوصيّة وحرّرت معصم القرينة. خالفت الوصيّة لا جهلاً بالوصية، لا نسياناً للوصيّة، لأننا نستطيع أن ننسى كل شيء، ولكننا لا نستطيع نسيان وصايا هي

جزء منّا. حرّرت المعصم تلبيةً لوسوسة خفيّة لم أدرك لها سراً إلاّ فيما بعد. حرّرت المعصم فسمعتها توشوش:

- هذا فأل سوء!

تسلّقت سفح العرش زحفاً. انسابت كما تنساب الحيّة، ووشوشت في أذني بفحيح كفحيح الحيّة:

- هذا فأل سوء!

نفثتْ في وجهي أنفاساً سخيّة، ولامست بأنفها أنفي فاستنشقتُ أنفاسها الممزوجة بعطر أزهار البرّ، وعطر الأنوثة في جسدها، عطر اللهفة والحمّى والشهوة في جسدها، فسحبتها إلى أعلى، وطرحتها على فراش العرش، وحرّرتها من ثنايا الأثواب، فارتجف الجسد المتوّج بالنهدين الشهيّين، وأطلقت أنيناً محموماً. تحرّرت من ثيابي أيضاً، فدبّ العراء إلى رحاب العراء، والتأمنا في عناق الجنون. بدأتْ تستجدي، وتلهث، وتستغيث، ظمأ الى الرجولة، ولكنّي تحاملت وقمعت في نفسي الرجولة. طوّقتني بيديها، فمددت يدي إلى إبطي، وسحبت المدية من الغمد. تحوّل هياجها خواراً حقيقياً، وتعلّقت برقبتي بكلتا يديها انتظاراً للرجولة، استجداء للرجولة، اندفاعاً إلى الرجولة. أشعلت الجنيّة، بجنونها، ناراً في جسدي، ولكنّي جاهدت ببطولة لأمنع عن الجنيّة الرجولة. أحكمت قبضتي على المقبض، ونزلت بالنصل إلى أسفل. تسلّلت باللسان الشره إلى الجسد الذي يتلهّف ويتقلّب في الشهوة، وجررته فوق الحريق كما يجرّ الأشدّاء النصل على أجساد أهل الوجد الذين صرعهم الغناء لينحروا الجنّ، ويفكّوهم من الأسر. جررت اللسان على نحررها، ولكنها لم تجفل، ولم تنتبه، ولامست بالنصل نهديها المشيّعين إلى أعلى في الاستنفار المزموم الذي ينتظر الارتواء من الظمأ بالرجولة فطال به انتظار الرجولة. حرث النصل البدن كلّه، وعبر خندق النهدين، وعبر البطن الضامر، وغرق في سنّه في

حفرة السُرّة، ثم اجتاز السُرّة ليغرق في الأخدود. ولكنه تحرّر من الفخّ الخالد، وعبر إلى الضّد. تخلّى عن بدن الظلّ لينتقل إلى بدن الأصل، هجر جرم الساحر الخالي من روح الساحر، وذهب إلى ظلّ الساحر، حيث يتخفّى الساحر. قرر أن يفرّ من المرأة، فذهب إلى عرين الرجل، حيث تنام العضلة الشقيّة، العضلة الجنونّية التي تستعبد الرجل، وتقوده ليحمل للمرأة نسلاً يصير به للمرأة عبداً. لامس لسان النحاس عرْق الخطر، فتناولت الحيوان الشقي بقبضة يدي الأخرى، وأغمضَت عينيّ قبل أن أجرّ النصل المميت على نحر الحيوان الكريه. أفلتت من صدري أهة وجع، فانبثق النزيف، وغمر دم الرجولة الجسد الذي يشتعل شوقاً لنيل الرجولة، فأطلقتْ صيحة فزع، ولكنّي لم أسمع صوتها إلاّ عندما رميت في وجهها بالعضلة:

- ظننت أنّك لن تفعل ذلك أبدا!

١٩

حام حول رأسي، وسخّر لي الأمة الحولاء طوال الأمد الذي استغرقته هجعتي، ولكنه كتم استنكاره، ولم يكشف لي عن مواجعه إلا بعد أن قطعتُ في سبيل الشفاء شوطاً بعيداً. جلس بجواري، وفرّ بعينيه بعيداً ليتّقي عينيّ قبل أن يسرّ لي بأمره:

- أنت لا تدري أنّك آذيتني أكثر مما آذيت نفسك.

استفهمت إيماء فأشاح بعينيه جانباً قبل أن يوضح بالايماء أيضاً:

- هل ظننت أن الآباء يتخذون الأبناء كي يتباهوا بهم أمام الأقران؟

- ألا يُقال أن الرجل الوحيد هو الرجل الذي لم تنجب له النساء أبناء؟

- هل ظننت أن الآباء يتخذون الأبناء كي يدفعوا عنهم الوحشة؟

- ألا يدفع الأبناء عن الآباء الوحشة أيضاً؟

- قد يدفع الأبناء عن الآباء وحشة الحياة في الخلاء حقاً، ولكن الأبناء لم يولدوا من أرحام أمهاتهم يوماً كي يكونوا للآباء فخراً يتباهون به أمام الأقران، ولا لكي يصيروا، إلى جوار الآباء، دمى يدفعون بها وحشة العزلة. الأبناء ولدوا ليكونوا للآباء في الصحراء علامة.

- علامة؟

- بلى. العلامة هي الغاية، والدمية، في الولد، هو الطُعم الذي يستدرجنا به الخفاء لكي لا نتأخّر في صنع العلامة. والولد الذي لا يستطيع أن يبدع من صلبه الولد يتحوّل دميةً جوفاء، لأنه عجز عن ابتناء العلامة.

- وهل للعلامة شأن الأعجوبة حتى تصير غاية العراك كلّه؟

- بلى. العلامة أعجوبة، لأن العلامة هي الشيء الوحيد الذي يستطيع إنسان الصحراء أن يقهر به الصحراء في رحاب الصحراء.

- سمعت العقلاء يقولون ان للصحراء في رحاب الصحراء لا قاهر.

- ولكن الأجيال كذّبت العقلاء، لأن الأجيال قهرت الصحراء في رحاب الصحراء بالذريّة.

- بدأت أفهم.

- إذا انقطعت الذريّة في الصحراء، انقطعت علامة سليل الإنسان في الصحراء.

- بدأت أفهم.

- هل كنّا سنهتدي في سبل الصحراء لو لم يقم لنا الأوّلون في الصحراء أنصاب الحجارة؟

- سبيل لم تقم على أجنابه أنصاب الحجارة مهدّد بغول إسمه التّيه.

- أحسنتَ. سلالة الإنسان في الصحراء مهدّدة، أيضاً، بغول التّيه إذا انقطعت في الصحراء ذريّة الصحراء، فما فعلت لك حتى محوتَ من الصحراء علامتي بضربة الجنون؟

- لم افكّر في الإساءة لمولاي أبداً.

- لا أنكر أني شاركت في تنفيذ الجرم يوم شاركت في تدبير القران. ولكن عزائي أني فعلت ما فعلت لا لكي تستمتع في أحضان أعرف أنها خاوية، وربما مهلكة، ولكني فعلت ما فعلت طلبا لعلامة تصير كنزاً لي ولك.

- أدري.

- هل ظننتَ أني أجهل فساد الملّة عندما دفعتك إلى أحضان الملّة؟

- لم أشكّ في دُرْبة مولاي يوماً.

- كلنا يدري أن المرأة مخلوق لا يُحتمل، ولكن لزام علينا أن نحتمل فساد طبعه لأن غايتنا العلامة لا السلوى.

- صدق مولاي.

- ظننت بك الفطنة، فخذلتني!

- فليغفر لي مولاي.

- ظننتُ أنّك ستنقذني، وها أنت تدفع بي إلى التّيه.

- فليغفر لي مولاي.

- لم تكتف بدفعي إلى التّيه، ولكنّك سبقتني إلى التّيه.

- التّيه قرينَي دائماً يا مولاي. التّيه قريني منذ فقدت السبيل الى القرين. التّيه قريني لأني لم أولد في روح القرين. التّيه قريني منذ انشقّ الحجر بخطأ مجهول، فتغرّبت عن أصلي، وفقدت إلى القرين الأثر.

- لم أصرْ مجبوباً يوم يئست من اكتساب الأبناء، ولكنّي لا أستحي من أَن اعترف أني صرتُ، بفعلتك، مجبوباً.

- وُلدتُ من بطن الأمّ مجبوباً، والاستئصال حرّرني من قيد

حيّرني كثيراً.

- أنا المجبوب، اليوم، لا أنت.

- يؤسفني أن أسبّب لمولاي وجعاً من حيث أردت بنفسي خيراً.

- هل يصير المصاب خيراً لطرف، وشراً لطرف، إذا لم يتناصب فيه الطرفان العداء؟

- هذا ما لم يخطر لي على بال.

- لو أصدقتني البنوّة بالأمس، لما صرتَ لي، اليوم، عدواً.

- هل نسى مولاي أن تلك بنوّة لم أخترها؟

- ماذا تقول؟

- مَنْ لم يختر بنوّة الأب يوماً، لا يملك الحق في أن يختار بنوّة مَنْ لم يكن يوماً أباً.

- ينكر الأبناء إحسان الآباء إذْ يظنون لا أبوّة غير أبوّة العرق.

- لو جرّب مولاي وبال البلبَال لما تحدّث عن نكران الإحسان.

- هل قلت البلبال؟

- البلبال يا مولاي وباء. البلبال، يا مولاي، وباء مميت.

- وهل ظننتَ أنّك ستنجو، بفعلتك، من داء البلبال؟

- البلبال وباء مميت . . .

- ألا تعلم أن البلبال قَدَر الأحياء؟ ألا تعلم أن من شاء أن يفلت من البلبال ليس أمامه إلاّ أن يذهب ليموت وحيداً في أبعد خلاء؟

- أن يموت الإنسان وحيداً في أبعد خلاء أهون من أن يموت بين الناس بالبلبال!

- ...

٢٠

ولكن العمّ لم ييأس. لم ييأس لأنه قرّر أن يشفيني من داء آخر رآه دائماً أقبح من داء البلبال. قرّر أن يستأصل من جسدي عضلة أخرى فشلت في استئصالها، أو ربما لم أحاول استئصالها، لأنها عضلة لا تكمن في الجسد كعضلة الرجولة، ولكنّها تسترّت بظلمة المجهول الذي نترنّح بعبئه جميعاً دون أن ندرك له ركناً أو نعرف له وجهاً. أخبرني أنّه قرّر أن يشفيني من شبح الشرخ الذي يطاردني، لأنه رأى أن يتنازل عن العلامة ويستبقيني إلى جواره لأدفع عنه الوحشة، فذهب إلى مربد الإبل وعاد من هناك بالداهية. اقتحم به الخباء فوجدت فوق رأسي كهلاً غريباً أشدّ حُلْبةً من قطعة الفحم، يستر بدنه الهزيل بلباس غريب لُفّق من جلود الحيوانات البريّة ووحوش الأدغال وخيط قطعا قطعاً على صفحة كتّان كئيب اللون، يتقنّع بلثام مضحك لُفّق، أيضاً، بنفس الطريقة التي ابتدع بها الثوب. لم ترتو عيني من رؤيته بعد عندما

وثب واختطف من يدي تميمتي المسربلة بأجناس الأضواء والألوان التي تركها القرين في يدي قبل أن يرحل آخر مرّة. اختطف الحجر وشرع يقلّبه بين يديه بإمعان ونهم. سلّط عليه أضواء المدخل فاشتعلت القطعة بنيرانها الكابية، وأومأت بشارات الإغواء، فبرقت عينا الداهية بألق كالدمع، وأطلق، بصدره، أنيناً مخنوقاً كوجع الحنين في صدور أصحاب الحنين. أعاد لي الحجر، وأقعى في وجهي وخاطبني بلسان أهل الأدغال، فاستفهمت عن العبارة من العمّ إيماء فأجابني بعبارة مبتسرة ككلمة السرّ:

- حدّثه عن أمرك!

رفعت إليه بصراً، وهممت بأن أنطلق، ولكني استدركت فسألت العمّ:

- وكيف سأحدّثه بأمري إذا كان لا يتكلّم لساني؟

ضبطتُ في عين اللئيم ابتسامة خبيثة، ابتسامة خفيّة، ابتسامة استخفاف، ابتسامة الملّة التي اعتادت أن تخفي ما تعرف، اعتادت أن تتظاهر، اعتادت أن تتنكّر حتى صار لها التنكّر شرعاً، حتى صار لها التنكّر وطناً تسنكه في أوقات الخطر، تسكنه لتضلّل الخصوم وتضيّع في وجوههم الأثر. سمعت عن حيل هذه الأُمّة كثيراً. سمعت عن دهاء هذه الأمّة المخيفة كثيراً، فارتعدتْ من دهائها فرائصي كلّما سمعتُ لها ذكراً. لهوتُ بالحجر. دفعت الحرج بقطعة الحجر، فشجّعني العمّ:

- لا تتردّد!

رفعت عيني عن الحجر فرأيت كيف أومأ الداهية للعمّ. خرج العمّ ووجدت نفسي، في قاع الخباء، مع كاهن الأغراب، وحيداً. مضى يترصّدني بعينيه الخبيثتين بغموض. لم أرَ في عينيه الغموض وحسب، ولكنّي رأيت بسمة الدّهاء أيضاً. تخيّلته، في قعدته المستوفزة، وألبسته المضحكة، وحشاً من وحوش الأدغال، يتحفّز ليقفز وينقضّ. ولكنه تكلّم. تكلّم بلسان صحراويّ. لم

تكلّم بلسان صحراويّ وحسب، ولكنّه تكلّم بلسان صحراويّ قحّ:

- حدّثْني. حدّثْني عن كلّ شيء. لا تُخفِ أمراً مهما رأيته وضيعاً!

تلاعبتُ باللقية. أرمي بها بيد لأتلقّفها باليد الأخرى. ترسم في الفراغ رموزاً بسربال الأضواء، فيستبقي الهواء ذيولاً حتى بعد أن تسقط كرة الضياء في الكفّ الأخرى وتختفي في قبضة اليد. كنت أتلهّى بالجوهرة باليدين، وأقلّب خاطراً في السرّ. كنت أسير وسوسة شدّتني، دائماً، إلى أنامٍ لم يثيروا اهتمام الأنام يوماً، بل كثيراً ما أنكرهم الأغيار، وجاهروا لهم بالاستخفاف والاحتقار، ربما لأنهم لم يروا فيهم ذلك السرّ الذي أسرني فيهم باستمرار؛ السرّ الذي تعمّد له هؤلاء الإخفاء، فارتدوا أقنعة الهُزْء، وتستّروا وراء أسمال الغوغاء ليوهموا الناس انتماءهم لملل الدهماء والخشارات والأوباش. كأنّهم تنكّروا احتيالاً لينفوا عن أنفسهم تهمة الإنتماء إلى سلالات الأكابر، وأصحاب الشأن والسلطان وحكمة الأزمان، لأنهم لم يؤتوا من علم الخفاء إلاّ قليلاً، فبرهنت الأزمان عكساً، لأنّ الدّربة أثبتت أن رُبّة المستضعفين أقوى، وعقل القلّة الخفيّة أدهى، لأن النبوءة لم تولد إلاّ من قلبها، والحكمة لم تنبت إلاّ من جدولها، والسرّ لم ينتعش إلاّ في حقلها، والخلاص لم يأت إلاّ من يديها. بلى. بلى. لم تر أم الصحراء الخلاص إلاّ من يَدي هذه السلالة السرّيّة التي أنكرتها وعاملتها بأجناس الإحتقار. أفلا يكون أهل السرّ لسماع السرّ أولى؟ ألن يكون أصحاب الخبر اليقين المتنكرين في الأسمال الملفقة (التي تستثير قهقهات البلهاء والأغيار) أجدر بسماع الرواية؟ يومها رويت السيرة. يومها رويت السيرة كما لم أروها لأحد. يومها لم أرو السيرة وحسب، ولكنّي تلذّذتُ برواية السيرة كما لم أتلذّذ بهاَ من قبل. رويتها لا بحماسة من يروي، أو

تلذّذ من يروم القصّ، ولكنّي رويتها بروح مَنْ يستكشف، ويستشرف، ويفتّش، فحقّ لي أن أقول أني عشتها من جديد. عشتها لا كما تُعاش البلوى، ولكن كما تُعاش البلوى التي انتشل منها الزمان الوجع، ولم يُبق فيها إلاّ على سحر الإمتحان.

الداهية استمع، أيضاً، بلذّة: كان يصلب ذراعيه حول صدره، ويحمي قفص الصدر بركبتيه المنصوبتين إلى أعلى، يغمض عينيه فتتنزّل الحُلبة، ويدلهمّ الوجه بوشاح السواد، فلا يقتحم القبس الغلس إلاّ ساعة يفتح عينيه، فيتألّق الألق، وتسترجع اللُّهْبة ما اختلسته الحُلبة، فأري في صفاء المقلة فضولاً، ومرحاً، وانحيازاً، واستفهاماً، وفهماً، وعطشاً إلى المزيد.

في المقلة رأيتُ، أيضاً، ما لا يُرى. رأيتُ ما أثارني دائماً، ولكنّه أعجزني بانتمائه إلى خبأة لا سبيل لانتهاكها أو اكتشافها، لأنّ مياهاً سخيّة ستجري في قيعان الوديان حتى يأتي اليوم الذي أعلم فيه أن ما نجهل أنفس مما نخمّن، وما نخمّن أنفس مما نتخيّل، وما نتخيّل أنفس مما نعلم، وما نعلم أنفس مما ملكت أيدينا، لأننا لا نملك، حقّاً، في أيدينا إلاّ ما نعلم، ولا نعلم إلاّ ما نتخيّل، ولا نتخيّل إلاّ ما نخمّن، ولا نخمّن إلاّ ما نجهل. أجل. ما نجهل هو قدرنا الذي يدور حولنا، ولا يكفّ عن استفزازنا، ولكنه يتحصّن، ويتخفّى، ويرفض أن يكشف لنا عن نفسه كما يرفض أن يكشف لنا عن نواياه.

من هذا الوطن اللعوب، من هذا الركن المستحيل، استعار كاهن الأدغال لسانه، كما استعار منه إيماء المقلة، فسدّد إلى اللقية نظرة صامة قبل أن يعلن:

– أنت مغلول!

– مغلول؟!

– أنت مكبّل بأغلال كثيرة، ولكن لا ينبغي أن تبتئس كثيراً، لأننا كلنا أصحاب أغلال، كلّ أنجال الصحراء أسرى!

- وضعتُ أمري بين يدي مولاي لا ليحدّثني عن الأغلال، ولكن لكي يخلّصني من الأغلال.

- لا خلاص من العلّة إذا لم نقف على سرّ العلّة.

- أريد، يا مولاي، أن أستردّ السبيل. أريد، يا مولاي، أن ألتحق بالقرين.

- أيسوءك أن أقول إن الشفاء، كالدّاء، ترياق موجع؟

- الترياق، دائماً، موجع. تجرّعت الترياق مراراً، فعرفت أن المرارة قدر كلّ ترياق نفيس.

- كان الأمر سيهون كثيراً لو لم يبتلع أقرب الأقرباء السرّ!

- عن أيّ سرّ يتحدّث مولاي؟

- سرّ صار للعليل قيداً يوم اختار العمّ أن يلتقم السّحر ليغدو مع السرّ كائناً واحداً.

- لا أفهم.

- أجد لتفسير الأمر عسراً إذا لم أتحدّث عن الأمر بلغة السّحر.

- ألا توجد لغة أيسر في حديث السّحر؟

- لا يأسر الإنسان إنساناً إذا لم يعرّض حياته للخطر.

- أوّل السّحر خطر. نهاية السّحر خطر. وما بين الخطر والخطر لعب بالنّار. هذا ما يقوله دهاة القبائل عندنا.

- أجناس الخطر مستعارة من أجناس السّحر، وأجناس السّحر مستعارة من أجناس الطلب، وكلّما استعصى نيل البُغية أكثر، كلّما ازداد الخطر الذي يحيق بصاحب السّحر. وصاحب القربى الذي أدرك أنه لا يستطيع أن يستبقي البُغية إلاّ إذا عزل الشرخ عن شرخه لم يجد خياراً إلاّ أن يرهن رقبته في سبيل الحصول على وَهْم يسمّيه ذريّة، فالتقم السّحر في الجوف ليربط مصيره بمصير البُغيَة إلى الأبد، فهل استطعتُ أن أبيّن؟

- ولكن كيف المفرّ؟ كيف المفرّ؟ مولاي لا يعلم أنّي سأهلك

إن لم أجد سبيلاً إلى المفرّ.

- هل تختار المفرّ مهما كان سبيل المفرّ موجعاً؟

- بلى. مهما بدا سبيل المفرّ موجعاً فلا شكّ أن القيد أكثر وجعاً.

- أتختار المفرّ حتى لو كان سبيل المفرّ فاجعاً؟

- مهما رأى مولاي سبيل المفرّ فاجعاً، فإن البقاء في الأغلال أكثر فجيعة.

- فرغنا من أمر الفرار، وآن لنا أن نتجادل حول أمر الكراء.

- الكراء؟

- الكراء في لسان السّحر ليس عطيّة ككل العطايا، ولكن الكراء، في هذه الحال، قربان لا يختلف عن أيّ قربان.

- قربان؟

- وماذا ظننتَ؟ الكراء يجلب الطهارة. والطهارة شرط من أشراط الاستجابة. الكراء يطهّرنا لأنه يحرّرنا مما نملك. لا يحرّرنا مما نملك، ولكنه يعلن استعدادنا للتحرّر مما نملك، فيصير برهاناً على التضحية، برهاناً على الاغتسال من الدنس، برهاناً على الخلاص من الشهوة المقيتة التي تنتهك صاحب الملك كالسوس، لا لحاجة صاحبنا هذا لما يملك، ولكن لأن حرصنا يتضاعف، وشهوتنا إلى المملوك تشتدّ منذ كفّ المملوك عن كونه مالاً في اليد، وصار معشوقاً في القلب، فيعظم الخطر، لأن الشهوة تحيي، الشهوة دائماً للحياة وقود، والشهوة التي تبعث الأنفاس في العظام وهي رميم، وتأتي بالسلالات من الأرحام، هي التي تغذّي الحياة في الحطام، فلا يلبث الحطام أن يستحيل في قلب العاشق تنيناً لا يقنع ولا يشبع إلاّ إذا قاد صاحبه إلى أشرّ هلاك. فهل تظنّ أنه هلاك من طرف واحد؟ كلاّ، كلاّ. العاشق يندفع في عشقه فلا يقنع إلاّ بإهلاك معشوقه، لا يقنع إلاّ بإبادة مملوكه، ولكن الإبادة لا تشفي غليله، فيحلم باستعادة ما أباد من جديد،

يحلم ببعث ما أباد لامتلاكه مرّة أخرى، لأنه لن يستطيع أن يمتلك إلى الأبد إذا لم يمتلك المرّة تلو المرّة إلى ما لا نهاية. هنا تكون الشهوة بالانتظار. هنا تهرع إليه الشهوة، لأن الشهوة هي السرّ الوحيد الذي يحيي العظام حتى وهي رميم في رميم. هنا تتولّى الشهوة الأمر، فتلملم حطام الدمية، لتضع الدمية في يد صاحب الدمية ليبدأ اللّهو من جديد. فهل تدري كيف السبيل لإنقاذ الأمر من عجاجة الجنّ؟

– ماذا يريد مولاي أن يقول؟

– الكراء! بالكراء وحده نتحرّر من الشهوة ومن أخطار الشهوة لأن الكراء ليس تميمة وحسب، ولكنه قربان يحصّننا من مسّ كل ما امتلكت أيدينا.

– ماذا يريد مولاي؟

سكت أخيراً. ضاقت عيناه حتى اختفى من المقلتين البياض، فدهم الوجه الغلس من جديد. حرّر يده اليمنى من أحضان الجؤجؤ الملتحم بالساقين المنصوبين. سحب الذراع بمهل شديد، ورفع الكفّ في وجهي. تركها معلّقة في الهواء زماناً قبل أن تنفرج القبضة، وتفزّ السبّابة من كوم الأنامل، لتومئ إلى القطعة المسربلة بتلاوين الإغواء، فأسمع من فم الساحر نداء الاشتهاء:

– أريد هذه!

نداء الشهوة أيقظ في جوفي الشهوة أيضاً. ذلك أننا لا نقيم وزناً لما نملك إذا امتلكناه زمناً طويلاً، ولكن شهوتنا إليه لا تلبث أن تستيقظ ما أن نطالب بما امتلكنا، فنستميت، ونتشبّث، وتصيبنا الشهوة بالمسّ والحمّى والجنون. نداء الاشتهاء في صوت مَنْ أدان الأشتهاء، وأسمعني الهول عن الشهوة إلى الامتلاك منذ قليل، أحيا في قلبي الرغبة في الاحتفاظ بالحجر، فوجدتُ لصاحب النداء عذراً، لأنّ إرادة الامتلاك أقوى منّا، أقوى من كلّ الأقوياء، أقوى من سحر السحرة، إذا كان السحرة أنفسهم

يرجمونها بألف لسان، ولكنهم لا يجدون حرجاً في استجدائها ما أن تخرس عضلة اللسان.

هممت أن أحدّثه عن سرّ الحجر، وأردت أن أخبره كيف رأيته في مياه العُسّ عندما استحضرت لي كاهنة القبيلة القرين في ماء الغدير، وكيف تركه القرين في يدي ليكون له كلمة وداع في فراقنا الأخير، ولكني تراجعت عن القول، لأني تذكرت الوصيّة المميتة، فأصابني الغثيان، ووجدت نفسي أدفع بالحجر إلى يد الكاهن.

٢١

ليس الخوف من انتقام ما امتلكت اليد هو ما أصابني بالدوار، ودفعني للتنازل عن حجر الغواية، ولكنّ الرماد انجلى عن الجمر، فاستيقظ الحنين القديم، وسمعت بأدنى الهتاف، لأدرك فضيلة اليأس الذي علّمني التخلّي، وأنساني بلبالي طوال هذا الزمان. ولكن العرّاف أيقظ غولاً مدحه الشعراء، ورفعت من شأنه الأغاني، ونصّبه القوم عميداً للحياة، فأطلق عليه الغوغاء إسم الأمل، دون أن يدروا أن الأمل للأصحّاء ليس ترياقاً، ولكنّه علّة. تجرّعتُ من لسان الكاهن الأمل، فتململ الحنين، واشتعل البدن بالحمّى، وتملّكتني أحلام النجاة قبل أن أصدّق وجود السبيل إلى النجاة. لم يسرّ لي الداهية بالأمر من أوّل يوم، ولكنه استنسأني، فاستبطأته، فخرجت في طلبه بعد يومين. ذهبت إلى العراء المجاور لمربد الإبل حيث اعتاد أصحاب القوافل أن يركنوا ليستعرضوا بضائعهم ويستبدلوا السلع، فرأيت، في زحام

الرجال، العمّ، ولكني لم أتبيّن الكاهن بين القوم، فسربت إلى الغدير لأهدر الوقت. في المستنقع تبخّرت المياه، وتضاءل الغمر من أطرافه كثيراً، فتبدّى طوق الطين، وضيّقت أوحال القيعان الحصار حول الماء. وراء الغدير تمدّدت البسابس المغلولة بسبائب السراب إلى الأبد. تمدّدت شرقاً، ومضت تنطرح حتى أدركت أحاضيض الأجبال التي يستعير منها الغدير الحوالب، فشيّع الآل على منكبيه الأجبل، وطوّح بها في الفضاء حتى كاد يخترق بها السماء العارية الملفوفة بغلالات سببسب آخر استعار لونه من لون أثواب أهل الصحراء إذا بادت وبهتت وامتصّت منها الحياة والشموس اللون الأزرق. هيّج البسبس الشجن، وفتّشت في أقنعة السّبوب عن البُغية، عن السرّ الذي تخفيه السبوب، فلوّح الألق في وجهي إيماء، ولكنه لم يزود إلاّ غموضاً، لأن رسالة المتاهة أن تلوّح بالوعد، ولكن ليس من شيمها أن تخبر باليقين، والوطن الذي نراه بالعين، ولا نستطيع أن نبلغه بالقدم، هو معبود وليس وطناً، هو إله وليس ركناً، هو سماء وليس أرضاً، وسيظلّ كذلك في قلوبنا حتى لو أدركنا بعقولنا أن المهْمَه لم يخف وراءه شيئاً، حتى لو أدركنا أن الترباء التي يخفيها في عُبّه بلقع لا يختلف عن كل بلقع صحراويّ آخر، فكيف سيكون الحال مع صاحب الشجون الذي يعلم يقيناً أن في الأبعاد يكمن قلبه؟

جاءني الداهية بالوصيّة، وحدّثني طويلاً عن الطلسم، وعندما أذهله ذهولي، ربت على منكبي مودّعاً، فلم أره بعد ذلك أبداً.

تسكعتُ في طرف السّبسب، حمت في برزخ الحرم دون أن أجرؤ على اقتحام الحرم، طفتُ في فم الخلوة الخالدة التي قلبها طلسم الخلق قصاصاً مميتاً، ولكنّي لم أضع قدمي على الطريق، ولم أسلم أمري لقصاص ذقت مرارته يوماً، بل لم ألبث أن انتزعت نفسي من الإغواء انتزاعاً لا اجتناباً لغواية أعرف أنّي سأدفع ثمنها أوجاعاً صارت لي قدراً، ولكنّي فررت إلى الوراء لأقضي

حاجتي، وأستعجل إنجاز أمر يعيدني إلى الساحة غالباً لا مغلوباً.

همت في الوديان انتظاراً لحلول المساء، وشهدت الغروب فوق رابية متوّجة بصفوف أضرحة مهيبة مختلفة الأحجام. ملأت نظري ببهاء الأفق المسربل بدم القرص المندفن، وارتويت من السكون النبيل الذي زاده حضور الأسلاف نبلاً وجلالاً، ثم نزلت السهل مع اكتمال الغروب.

في الخباء لم أجد العمّ فانتظرت. طال انتظاري، فخرجت إلى مباءة الأنعام لأستفسر عنه من الأَمَة. في المباءة لم أجد الأَمَة أيضاً، فقررت أن أقتل الوقت في الأودية الجنوبية. لم أقطع في سبيل الجنوب مسافة بعيدة عندما تبيّنت صوت العمّ في جدل رجال يعبرون إلى المضارب الغربية. تمهّلت حتى عبروا، فسرت وراءهم متستّراً بعتمة المساء. توقّفوا قبل أن يبلغوا زحمة المضارب، وسمعتهم يودّعون العمّ بحرارة من لا يطمع في اللقاء أبداً، فأيقنت أن حياة كل إنسان نبوءة، ولكن البليّة هي أننا لا ندري أنها نبوءة، ولو استيقظنا من غفوتنا، لو أجبرنا أنفسنا يوماً وحملناها على نبذ الغفلة، لاكتشفنا حقيقتنا، ولما احتجنا إلى أن نلتجئ إلى الدهاة والعرّافين لاستجداء النبوءة.

أبصرت شبح العمّ عائداً، فتقاعست، وتباطأت، ولم أعد إلى البيت إلاّ بعد اكتمال الظلمات.

سادت الظلمات داخل الخباء أيضاً، لأني وجدت العمّ يتقرفص بجوار موقد ميّت، برغم أني تبيّنت قعب الحليب وطبق التمر بالجوار فعرفت أنه فرغ من العشاء أيضاً.

تربّعتُ بالجوار. انتظرت أن يبتدرني بالسؤال، ولكنّه تشبّث بالصمت، فاعتصمتُ بالصمت أيضاً. لا أدري كم دام الصمت، لأننا ننسى هول الصمت عندما نحاور أنفسنا فلا يعود الصمت في نفوسنا صمتاً، ولا نكتشف أن الصمت وباء يتهدّدنا إلاّ بصمت الأصوات التي تتهارج فينا وتتناهبنا. ولكن العمّ قهر الأصوات

لأنه استطاع أن يسمعني الصوت أخيراً:

- هل أفلح الداهية في استكشاف الدّاء؟

- استكشاف الدّاء؟

- لا يُستأصل الداء إذا لم يستكشف الدّاء.

- ...

- هل حان ميعاد الفراق؟

- الفراق؟

- رائحة الفراق لا تُخفى، فلا تخف عني!

- بلى يا مولاي. أظنّ أن ميعاد الفراَق قد حان.

- لقد أحببتك كثيراً، أتدري؟

- أحببتك، أيضاً، يا مولاي، ولو خيّرتُ في شأن الأب لما اخترت أباً سواك. لو خيرتُ في شأن الأب لأنكرت أبي، واخترت مولاي أباً.

- هذا يكفيني. الثناء على الإحسان، دائماً، إحسان.

- لو لم أكن مخلوقاً مسلوباً كما أخبرني مولاي يوماً، لما أنكرت لمولاي إحساناً، ولبقيت إلى جواره إلى الأبد.

- أعرف أن لا حيلة لك في أمرك، لأنك، مثل كلّ الناس، لم تختر قدرك.

- ليتنا نستطيع أن نختار أقدارنا، يا مولاي، ولو مرّة واحدة.

- هيهات! لو اختار الأبناء أقدارهم يوماً لما صار الأبناء للآباء أقداراً.

- لمَ صار الأبناء للآباء أقداراً يا مولاي؟

- لَو لم يصر الأبناء أقداراً للآباء لما هلك الآباء بيد الأبناء.

- ولمَ على الآباء أن يهلكوا بيد الأبناء يا مولاي؟

- لأن الآباء لن يحيوا في سلالة الأبناء إذا لم يهلكوا بيد الأبناء.

- ولمَ على الآباء أن يختاروا الحياة في سلالات الأبناء إذا كان

عليهم أن يدفعوا الهلاك ثمناً لتلك الحياة؟
- لأن الحياة في حياة الأبناء هو ما تسمّيه القبائل خلوداً.
- أيموت الآباء بيد الأبناء مرّة، ليحيوا في ذريّة الأبناء إلى الأبد؟
- يمدّ الآباء رقابهم ليجرّ الأبناء عليها أنصالهم مقابل أن يحيوا في الأبناء إلى الأبد.
- ألن يكون هذا الأبد خيتعوراً يا مولاي؟
- ما نصدّقه ليس خيتعوراً، وما لا نصدّقه خيتعور حتى لو لم يكن خيتعوراً.
- هل لي من مولاي بوصيّة ونحن على أبواب الفراق؟
- لا تختر أمراً لم يختره لك الخفاء أبداً.
- هل لمولاي أن يوضح؟
- لا تلو العصا في يد الأقدار، لأن الإنسان الذي يتباهى بنفسه لا يملكَ أمر نفسه.
- ظننتُ أنّ العراك سرّ الحياة.
- بالعراك لا نحيا، ولكنّنا نصرع حياتنا فنخسر العراك، فاحترس أن تعارك إذا شئت أن تحيا.
- كيف أدرك مولاي أني جئت لأكشف عن النوايا التي يحاول العقلاء أن يخنقوها بلفافة اللثام؟
- النوايا لا تُخفى. النوايا لا يخفيها القلب، فكيف يخفيها اللثام؟
- ظننتُ أن قراءة النوايا الخافية من شيم السحرة وحدهم.
- كل أهل الصحراء سحرة.
- أيكون عزائي في قول مولاي يوماً أننا لا نميت إلاّ مَنْ نحبّ؟
- لن أتنازل عن قناعتي أبداً: الإنسان لم يمت إلاّ مَنّ أحبّ بالأمس، الإنسان لا يميت إلاّ من أحبّ اليوم، الإنسان لن يميت

إلاّ من أحبّ غداً، فتشجّع ولا تنتكس أو تدبر!

سكتَ فسكتُّ أيضاً. عدنا لمجادلة الأنفس فنسينا الصمت الذي ينتصب بيننا ويتهدّدنا. نسينا الصمت، ولكن الوسوسة لم تنسنا نوايانا، فمددت يدي، دون أن أدري، إلى المدية. تشبثتُ بالمقبض المشدود إلى حفرة الإبط بسيور الجلد، فماتت القبضة على المقبض زمناً، ولكن الانتظار أعجزني، فغالبت الرجفة، وشددت المقبض، فانسلّ اللسان من الغمد انسلال الحيّة من سربها، ولم يتوقّف التسلل إلاّ بعد أن تحرّر اللسان الشره الذي لم يرتوِ يوماً من ظمئه الخالد إلى الدّم. زحفت نحو الجليس أشباراً. ركعَت في وجهه فسمعت تلاحق أنفاسه بوضوح. همد كنصب من أنصاب الحجارة، وتطلّع إلى ظلمة المدخل بكبرياء الأجرام التي نذرت نفسها تلبية لوصيّة خفيّة، فغدت، بالنذر، قرباناً.

اندفعت في بدني الحمّى، وزعزعني الدوار. قرّرت أن أضع حداً للانتظار فأغمضت عينيّ وشددت قبضتي على المقبض. رفعت المقبض إلى أعلى. شيّعت المقبض بعينين مغمضتين، ولم أفتحهما إلاّ عندما جررت النصل على النحر جرّاً جنونيّاً. غمر النزيف أصابعي، ولكني لم أسمع صوت الضحيّة، ففتحت عيني لأجد القربان ينتصب في وجهي بوجوم الأنصاب وكبرياء الآلهة، فيئست وقررت أن أعيد الجرّة. ولكن رائحة النزيف اللزج، الطازج، الساخن، غزت أنفي، وطوّحتني إلى الوراء سنيناً شممتُ فيها رائحة القربان لأوّل مرّة، وخاضت أصابعي في الغمر الرجراج ليلة حاولت أن أوقف نزيف النحر طمعاً في استرداد الأمّ.

حشوت كلتا يدي في بطن الترباء قبل أن أزحف لأتسلّل خارج الخباء. كان سبيل الشرق ملفوفاً بالظلمات.

تون (الألب السويسري)

١٩٩٨ م

(نهاية الجزء الثاني)

مؤلفات ابراهيم الكوني

١ . الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) ١٩٧٤م .
٢ . جرعة من دم (قصص) ١٩٨٣ م .
٣ . شجرة الرتمّ (قصص) ١٩٨٦ .
٤ . رباعية الخسوف ١٩٨٩ .
٥ . البئر (رواية) .
٦ . الواحة (رواية) .
٧ . اخبار الطوفان (رواية) .
٨ . نداء الوقواق (رواية) .
٩ . التّبر (رواية) ١٩٩٠ م .
١٠ . نزيف الحجر (رواية) ١٩٩٠ .
١١ . القفص (قصص) ١٩٩٠ .
١٢ . المجوس (رواية) الجزء الأول ١٩٩٠ .
١٣ . المجوس (رواية) الجزء الثاني ١٩٩١ .
١٤ . ديوان النثر البرّي (قصص) ١٩٩١ .
١٥ . وطن الرؤى السماويّة (قصص) ١٩٩١ .
١٦ . الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) ١٩٩٢ .

١٧ . خريف الدرويش (رواية - قصص - أساطير) ١٩٩٤ .
١٨ . الفم (رواية) ١٩٩٤ .
١٩ . السحرة (رواية) الجزء الأول ١٩٩٤ .
٢٠ . السحرة (رواية) الجزء الثاني ١٩٩٥ .
٢١ . فتنة الزؤان (رواية) ١٩٩٥ .
٢٢ . برّ الخيتعور (رواية) ١٩٩٧ .
٢٣ . واو الصغرى (رواية) ١٩٩٧ .
٢٤ . عشب الليل (رواية) ١٩٩٧ .
٢٥ . الدمية (رواية) ١٩٩٨ .
٢٦ . صحرائي الكبرى (نصوص) ١٩٩٨ .
٢٧ . الفزاعة (رواية) ١٩٩٨ .
٢٨ . الناموس (الجزء الأوّل) .
٢٩ . في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) ١٩٩٩ .
٣٠. سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، ١٩٩٩ .
٣١ . أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) ١٩٩٩ .
٣٢ . سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلْبال، ١٩٩٩ .
٣٣ . سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلّب، ١٩٩٩ .

المطابع التعاونية الصحفية ش م ل بيروت ، لبنان
حزيران ١٩٩٩

– لا تحتقر الخصام!
استفهمت إيماء فأوضح مطأطئاً:
– تعلّم ألاّ تحتقر الخصام، لأن المعنى، كلّ المعنى، في الخصام.
توجّعت دون أن أدري:
– أنا، يا مولاي، متعب.
– مبكّر، يا ولدي، أن تتحدّث عن التعب.
– كلمتُ مولاي يوماً عن سكون البال.
تزعزع كالمجذوب. تغنّى:
– السكون. السكون. السكون. مبكّر، أيضاً، أن تتكلّم عن السكون.
– أنا، يا مولاي، لا أريد شيئاً. أنا، يا مولاي، لا أعني شيئاً منذ ذلك اليوم الذي فقدت القرين. أنا شقيّ، يا مولاي، شقيّ، شقيّ، شقيّ. فهل في جعبة مولاي ترياق لداء الشقاء؟
ترنّح مرّة أخرى. تغنّى مرّة أخرى:
– عش، يا بني، وانسَ السكون. آن الأوان، يا بني، أن تستسلم. آن الأوان أن تحيا كما يجب أن تحيا.

المؤلّف: من مواليد ١٩٤٨، الصحراء الليبية، قبائل الطوارق. درس الآداب في معهد غوركي في موسكو. من مؤلفاته العديدة ما ترجم الى أكثر من ٢٥ لغة. يقيم في جبال الألب السويسرية منذ العام ١٩٩٣.

صورة الغلاف لفنّاني ما قبل التاريخ.
الألفية التاسعة ق.م. (منطقة تاسيلي – الصحراء الليبية)

ISBN 2-84289-126-0